العلم الثقافي

المدير: عبد الله البقالي
سنة: 54
سنة التأسيس: 1969/2/7
الخميس 14 شتنبر 2023
الموافق 28 من صفر 1445

Bach1969med@gmail.com
10 ، شارع زنقة المرج حسان الرباط

أوافق الزِّلزال ولا أُنافِق !

مع مُلْحق »العلم الثقافي «الأوَّل في هذا الموسم الجديد، لن نُمْعِن بالثَّرْثرة حول الدُّخول الثقافي والآمال المُنْتظرة، لا لشيء إلا لأنَّ الزلزال هذه المرَّة وليس السيفَ، هو الأَصْدَق أنباء من الكتب، أوَ لمْ ترَ كيف أخرست فاجعته الألسُن وعطّلت في أرْجُوحتها اللعِب بالأقوال !

قَدْ لا أُوافِقُ الزِّلزال في أُسْلوب الخطاب حين تسْتنْفر رجَّتُه الهَلَعَ في الأنفس، في المُداهَمة التي تسْتعْجل الصغير والكبير إلى الموت دون سابق إشعَار، قدَ لا أوافقه حين يسْحَب الأرض من تحتي ليتركني عارياً دون سقف أفترش التُّراب، ولكنني أوافقه الرأي بعد أن ضاع في زمننا َغير العادل الصوت الشُّجاع المنازل، كيف لا وقد نابَ عنْ بعض الدُّمَى غير المُتحرِّكة التيَ تصْنع في مطْلع كُلِّ موسم جديد، أكذوبة الدُّخول السياسي ببرامج زائفة تُشبه كلام الليل الذي يمحوه النهار، لقدْ أوْجَز الزِّلزال بلغة الإبادة الجماعية كل القيل والقال، تجاوز الدُّخول السياسي إلى العُمْق المغربيَ السَّحيق، هناك حيث الإنسان في عُزْلة قُصْوى وقُسْوى قريباً من العَدَم، ولا شيء من المرافق الإجتماعية تجعله يَشْعُر بآدميته وانتمائه لهذا الوطَن، لا طُرُق تصل المنْبُوذين في الفجاج السحيقَة للجبال بِشرْيان الحياة، لا جُسور ولوْ مَعلقة في الهواء على سبيل الشَّنْقْ !

قد لا أُوافِق الزِّلْزال حين يخْتار من البلد منطقةً هشَّة ليسْتعْرض قوَاه، حين يبْتلع في لمْح البصر دواوير لا يَسْكنها سوىَ الضعفاء، حين يدُكّ مع أعلى جبل، موسماً دراسياً بكامل مُعَلميه وتلاميذه الفرحين بوزراتهم الزرقاء اسْتعداداً لخوْض تجربة الأمل، أمْ ترى َالزِّلزال من حيث لاَ يُدْرك الحكْمة الإلهيّةَ أحد، كان أرَقَّ ممَّنْ يتحكَّمُون في شؤون هَذا البلد، ولم يقْترف هذه الجَريرة إلا ليفْتح أقْصَر طريَق للسَّماء، كي يُخلِّص سُكّان الحوز المحْشورين في المسالك الوعْرة بين الجبال من الشقاء، هي ميتة واحدة خيرٌ من موت يتكرَّر بضنك العيْش كلَّ يوم، لا ماء ولا كهرباء ولا سبُل معبَّدةَ تجعلَ القدم غير حافية وهي في حذاء، قد لا أوافِق الزِّلْزال أسلوبَ خبْط العَشْواء الذي يضْربُ دون أنْ يُفرِّق، ولكنَّني معهُ على امتداد خطوط الطُّوَل والعَرْض، مع الزلزال وهو يَقْلبُ الأعلى إلى أسفل الأرض، كي يفْضح أن عجلة التنمَية نفسُها قصير لا يتجاوز فتْرينَة الحواضر، تقف حيث ينْتهي شارعٌ مُزفّت بعيدا بعشرات الكيلومترات عن المداشر، ولا تكتمل هذه العجلة كي تصل مثلاً إمْدادات المواطنين للناجين من الكارثة، إلاّ علَى دابّة حيوانية أفْضَلها بَغْل مُطيعٌ في غاية النُّبْل !

لا أوافق الزِّلْزال حين يُوسِّع من رُقْعة الخراب ليضْرب حتى العقول، حين يفتح مع الأخاديد المجال في أكثر من موقع للتَّكاسل الإجتماعي، كي يُؤَدْلج الأدعياءُ حتى الكوارث الطبيعية إما سياسياً بزرْع نوازع الشقاق والكراهية وتسْميم العلاقات بين الشعوب، أو دينياً.. من ذا الذي رأى الزلزال يتلفع عمامة ليرْطن بفتاوى كأنَّه على تواصل مباشر مع الله، هذا يستَحقّ العقاب وذاك أجْدر بالثواب، لا أوافق الزِّلْزال حين يُعمِّق الخُرافة ويُعْطي المصْداقية للدَّجَل، وإلا كيف اختار أنْ يضْرب في الموعدَ الذي حدَّدتْه عرَّافة شؤم تضربُ المندَل، حقاً إنَّ الصُّدفة تصْنع أكاذيب تضْطرُّ الناس بتكْرارها إلى التَّصْديق، لا أوافق الزِّلْزال الرأي حين يفتح أسْواقاً رائجة للاتِّجار بمآسي الناس، أو يتجاوز في سُلم ريشْتر درجةً تشَقّقُ له بعض الأنْفس المريضة بالحقْد والتَّشفي، وليْتها كالحجارة تنْفجر بالأنْهار، ولكن ماذا نصْنع لضفدع لا يُثْبت وجوده إلا بالنَّقيق في مُسْتنْقع !

لا أستطيع تقْدير حجْم المبالغ التي تراكمت منذ التأسيس في صُندوق تدبير الكوارث، ولكن أما كان أجْدر في مثْل هذه الواقعة أن ينْبري جليّاً للعرْيان، بل الأحْرى أنْ تُخصَّص سُيولة هذا الصُّندوق ما لمْ يُجفِّفْها الجشع، لإصلاحات استباقية لكل المناطق المعزولة والهشّة خارج المدار الحضري، عساها تُقاوم الكوارث الطبيعية المحْدقة دائماً بالخطر، عساها تكْتسب ببنْية تحتية مناعة كافية لحماية البشر، ألم أقُل إنّي أوافق الزِّلْزَال الذي مارس تعْريته الخاصَّة لفضْح مكمن الخلل، إنَّه ليس في الطبيعة ولو انفجرت بالغضَب، إنَّما في الفساد الذي دسَّ المال العام في أرْصدة أبي نَهَبْ!

هلِّلي يا أمّ الشَّهيد إنَّا شعبٌ لا تَقْهرُه الزلازل، هلِّلي بأحْلى نشيد، إنَّا شعْبٌ يَحْذُوه التَّضامن ويرقص حين الأرض تميد، لا يَهمُّنا أنْ يَضرب الزلزال رغم ما أحْدَثه في النُّفوس بالفزع من شقُوق، ولكن الأدْهى أنْ لا يصل بتردُّداته الحيويّة لبعض القُلوب، وكيف يصل وقد اكتسبت سُمْكاً أغْلظ من قشرة الأرض، وانظري يا أمّ الشَّهيد وأنْت تلْتحفين الأنقاض في حوْز الأطلس الغائر، انظري الشعَب يأتيك جسداً واحداً بأجمل المشاعر، يَحْمل على الأكتاف كالأطْباق ما تهدَّم من جبال، انظري الشَّعْب يَلوح في الأفق محْفوفاً بأضْواء الإمْدادات التي تُسْعف الجسد والروح، هلِّلي كي يلْتئم في القلب شرْخُ الزلازل، ها الأطْلس يسْتعيد وهو مرفوع الرأس رقصته الشهيرة في زفاف الشهيد، هلِّلي ليرقص كل الشَّعب على إيقاع أقْدام هبَّتْ للنَّجْدة في قوَافِل!

محمد بشكار
bachkar_mohamed@yahoo.fr

عزيز أمعي

كل النساء.. كل الرجال

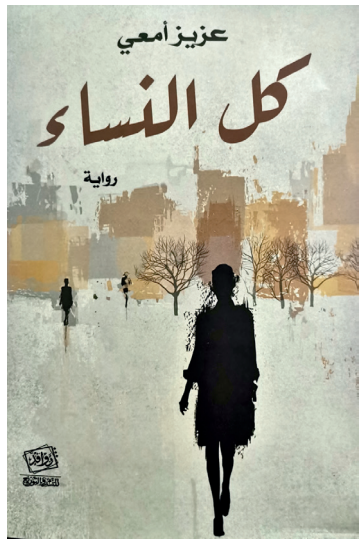

في حلة أنيقة أطلق الكاتب المغربي دفعة واحدة، عن دار روافد للنشر والتوزيع بالقاهرة، روايتين إحداهما تُكمِّل الأخرى، تماما كما يكتمل الرجل بنصفه الآخر الذي هو المرأة، وقد سمى الرواية الأولى «كل النساء» بينما حملت الثانية عنوان «كل الرجال»، واستهل هذه الأخيرة ببطاقة للمسرحي العالمي وليام شكسبير، يقول فيها «إياك أن تكذب على النساء فلهم قدرة خارقة على اكتشاف الحقيقة، وقدرة أعظم في التظاهر بعدم اكتشافها «.

ونقرأ على الغلاف الأخير لرواية «كل النساء»: «كنت فتاة لم تبخل عليها الطبيعة بمفاتن الحسن والجمال، ما جعلني ألفت انتباه الكبار والصغار منذ نعومة أظفاري. انتهيت مبكرا إلى تأثير جمالي على التلاميذ في المؤسسة التي أدرس فيها، وأنا لم أتجاوز سن الخامسة عشرة بعد. كان التلاميذ، وقد بدأت براعم المراهقة تتفتق في أرواحهم وأجسادهم، يتوددون إلي ويتنافسون فيما بينهم كي ينالوا رضاي. كل واحد منهم يحلم بأن يفوز بفؤادي. أساتذتي أيضا، كانت عيونهم تعترف في وقار المهنة أنني جميلة، وسأصبح بعد سنين قليلة امرأة تأسر أفئدة كل الرجال».

في حين يسطع الغلاف الأخير لرواية «كل الرجال» « بهذه الإضاءة: «قولك جعلني أستعيد كل انتباهي، تساءلت ما هي المفاجأة التي أعددت لي. عودتك لرؤيتي كانت كافية وأكثر بالنسبة لي. أنت مفاجأتي التي أصبحت أعيش على الدوام في انتظارها حين تكون بعيدا عني. وحين ألقاك، يصبح كل ما أوده وأتمناه من الزمن هو ألا ينتهي هذا الحلم الذي أعيشه معك. لم أحاول أن أفكر في مصير هذه العلاقة، ولا في مدى إمكانية نجاحها. هل تنتظرها في الأفق البعيد أنوار شمس ساطعة، أم أنني سأكون بالنسبة إليك مجرد فتاة عرفتها كما عرفت غيرها من الفتيات، تلهو بها وبمرافقتها وحين تمل تبحث عن صيد آخر يمكنك من متعة الاكتشاف الجديد، لأن لا شيء يقتل الحب بل العلاقة بين الرجل والمرأة عموما كالرتابة وخلو العلاقة من أي جديد».

تقع رواية «كل النساء» في **235** صفحة ورواية «كل الرجال» في **316** صفحة، وهما معا من الحجم المتوسط، وقد طبعتا في نسختهما الأولى سنة **2023**، وقام بتصميم الغلاف الفنان رائد مجدي.

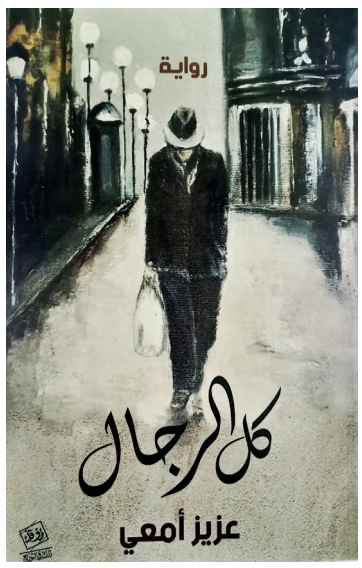

بوشعيب عطران

أيام ببروكسيل وأدراج تائهة

ضمن سلسلة نصوص رحلية معاصرة، أصدرت الجمعية المغربية للباحثين، نصا رحليا في طبعة أولى سنة **2022** ، يحمل عنوان «أيام ببروكسيل» للكاتب المغربي بوشعيب عطران، يقع هذا الكتاب في **94** صفحة من الحجم المتوسط، وصمم غلافه توفيق البيض.

هذا المؤلف عبارة عن محكي لرحلة قام بها الكاتب إلى بروكسيل صيف سنة **2017**، واختار تدوينها في قالب يوميات التقط فيها بحس شاعري وباقتصاد لغوي كبير، مجموعة من التفاصيل المثيرة للدهشة والسؤال، وجدلية الهنا والهناك وغيرها من الثنائيات.

أما عن مشورات مكتبة السلام الجديدة، فقد اختار بوشعيب عطران، أن يصدر روايته الأولى «أدراج تائهة» طبعة أولى **2023** ، تقع في **152** صفحة من الحجم المتوسط، وتضم **26** فصلا.

تحكي الرواية عن فترة زمن الثمانينات، تدور أحداثها بأمكنة مختلفة داخل وخارج الوطن، يبقى المكان الذي شهد مولد بطلها ونشأته مدينة الجديدة، المحور الرئيسي للرواية.

من خلال هذه الرواية نرصد مع بطلها التحولات الاقتصادية والتغيرات الاجتماعية بمدينته وبوتيرة متسارعة خلال فترة هجرته.

غابت الأمكنة التي تسكن ذاكرته، افتقد سكانها المحبة والتآلف، ضاعت المبادئ الأخلاقية وغيرها من الأشياء المحببة إليه. ليعود مرة أخرى إلى الديار الأوروبية، وبتصميم آخر، بعيدا عن المتاهات التي كان يغرق نفسه فيها، والتساؤلات المضنية عبثا، بحثا عن الهدوء والسكينة والحب .

تأليف: فرانثيسكو د أسيس د أرستراثو

ترجمة: مزوار الإدريسي

رحلات عبر المغرب

أثمرت الشجرة الوارفة لدار مكتبة سلمى الثقافية بتطوان، بكتاب جديد يحمل عنوان :»رحلات عبر المغرب» لمؤلفها الإسباني فرانثيسكو د أسيس د أرستراثو، وقد ترجمه إلى العربية الكاتب المغربي مزوار الإدريسي، وقد صدر هذا المؤلف ضمن سلسلة المنظري بدعم من وزارة الثقافة والرياضة الإسبانية.

يغتني فهرس هذا الكتاب المترجم بأجزاء وفصول بالإضافة إلى كلمة المترجم والتوطئة، ونقرأ عناوين مثل : تاريخ، الموروس، البربر، العرب، اليهود، السود، قبائل بربرية، شرفاء الأصل، شرفاء الدين، شرفاء الجيش، توحيد الله، وجود الملائكة، بعثة الرسل، القضاء والقدر، مُتع الفردوس، عقاب الجحيم، الشهادة، الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج، الختان، الوضوء، الكحل، السواك.

يقول المُترجم في كلمته التقديمية لهذا العمل: « يسرنا أن نقدم إلى القارئ رحلة إسبانية أخرى مترجمة إلى العربية، هي رحلات عبر المغرب لمؤلفها الأستاذ فرانثيسكو د أسيس د أرستراثو، بعدما قدمنا إليه، في السابق، ترجمتين هما رحلات عبر المغرب، لضومنغو فرانثيسكو باديا، الشهير بعلي باي (1767-1818)، ورحلة خوصي ماريا مورغا (1827-1876) ذكريات المورو البُشكنسي (المغرب: ذكريات ومشاهد وتاريخ).

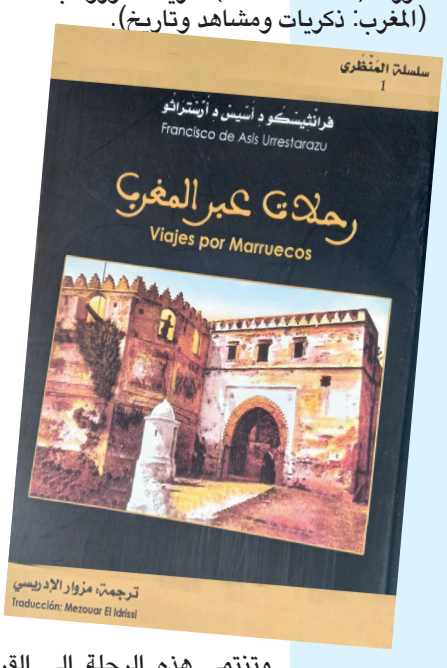

وتنتمي هذه الرحلة إلى القرن 19م شأن الرحلتين الأخريين، وهو قرن شهد نشاطا تأليفيا غزيرا كان موضوعه المغرب؛ مثلما عرف اهتماما إسبانيا لافتا بجاره الإفريقي المهيب، الذي تحول بعد طرد الأندلسيين من غرناطة سنة 1492 إلى أكبر مجهول، على الرغم من قُربه الشديد من إسبانيا؛ فالمعروف أن المغرب كسر شوكة خصومه الأوربيين أكثر من مرة، كانت آخرها دحره للإمبراطورية البرتغالية وهي في أوجها في معركة وادي المخازن، يوم 4 غشت سنة 1578».

يقع هذا الكتاب في **225** صفحة من الحجم المتوسط، وقد طُبع في مطبعة الخليج العربي بتطوان، تصفيف وتصميم الغلاف: لبنى أقوبعن.

إدريس الملياني

شعر

رَقْصَةُ الْأَطْلَسِ

من أعمال الرسام جاك ماجوريل

اهْتَزَّتِ الْكُرَةُ
الْأَرْضِيَّةُ
الْقُبَّةُ
الْبَسِيطَةُ
ارْتَجَّتْ عَلَى كَتِفَيِّ
الْأَطْلَسِ الْجَبَلِيِّ
اهْتَزَّ وَارْتَجَّ
دَائِماً
وَلَمْ يَشْعُرْ
بِهِ أَحَدٌ !
..
أَهَذِهِ الْهَزَّةُ الْأُولَى
الَّتِي حَدَثَتْ لَهَا
وَلَمْ يَتَأَثَّرْ
أَبداً بِهَا
وَلَمْ يَتَضَرَّرْ
مِثْلَهَا
الْجَبَلُ

الْأَكْبَرُ وَالْأَوْسَطُ وَالْأَصْغَرُ
وَالْبَحْرُ الْإِلَهُ الشِّبْلُ
وَالْأَسَدُ !
..
الْأَطْلَسُ الْبَعْلُ
رَبُّ أُسْرَةٍ كَامِلَةٍ
حَامِلُ الْأَرْضِ عَلَى مَنْكِبَيْهِ
زَوْجُ غَايَا
إِلَهَةِ الطَّبِيعَةِ
أُمِّ الْهِيسْبِّيرِيدِيَاتِ
حَارِسَاتِ تُفَّاحَاتِهِنَّ الذَّهَبِيَّاتِ
قَدِ اخْتَطَفَهُنَّ هِرَقْلُ
ثُمَّ وَلَّى
هَارِباً مَعَهُ الْبَلَدُ !
..
فَكَيْفَ لَا يُرْغِي
وَلَا يُزْبِدُ
وَهُوَ الْأَطْلَسُ الْجَبَلُ

الْبَحْرُ الْإِلَهُ الْأَمَازِيغِي
يَرَى أَرْبَابَهُ أَحْبَابَهُ قَتْلَى
يُسَاقُونَ حَكَايَا
لِتَنْوِيمٍ وَتَخْوِيفِ
أَطْفَالٍ بِأَغْوَالٍ
وَغُولَاتٍ لِإِغْوَاءِ الرِّجَالِ
وَلَا يَأْسَى وَلَا يَرْتَعِدُ !
..
مِنْ هَوْلِ مَا يَسْمَعُ عَنْ
آلِهَةِ الرُّعْبِ وَمَصَّاصِي الدِّمَاءِ
مِثْلِ لَامْيَا
وَأُغُورْزِيلَ وَتِيرْيِيلَ
وَلَا يَضْرِبُ بِالْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ
الْقُبَّةِ الْبَسِيطَةِ
الْأَرْضَ وَعُرْضَ الْبَحْرِ
وَالْحَائِطَ وَالْهَوَاءِ
وَالْكَفَّ بِالْكَفِّ
وَيَمْشِي رَاقِصاً يَتَّئِدُ !

صدرت قبل ثلاثين عاما (1993)

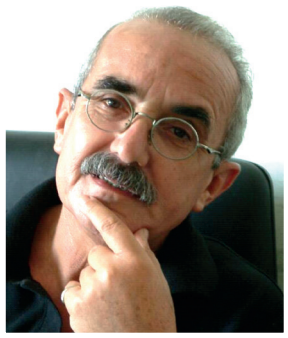

إبراهيم الخطيب

الضوء الهارب
البحث عن حكمة المساء

1

بين المنسي والمتخيل مسافة تندغم فيها الكتابة. تستعيد الذات كينوناتها القديمة فتكتشف أنها لم تكن سوى وهم منفلت: مدينة مشرعة الأبواب على السراب، وتاريخ يتلوى في اتجاه المبتذل، وأطياف على اللوحة تعاند في الخروج إلى الحياة، ونساء مشحونات بالرغبة يتحولن إلى وقود ذاكرة تعتبر التخييل واقعها الوحيد والممكن.

تشكل رواية «الضوء الهارب» العمل الروائي الثاني لمحمد برادة بعد رواية لقيت استقبالا نقديا مثيرا، وترجمت إلى الفرنسية والإسبانية هي «لعبة النسيان» (1987). وإذا كانت هذه الرواية الأخيرة قد اعتمدت في معمارها على مبنى كرنفالي متعدد الخطابات وزوايا النظر واللغات، فإن «الضوء الهارب» تعتمد أساسا على مبدأ التركيب المتقاطع، حيث تتم معالجة السرد من زاوية استبطان راو مشارك لا يتردد في نهاية الرواية، وبواسطة يوميّاته، عن التحول إلى راو عليم أو مساهم في الخلق الروائي.

ويمكن القول بأن «الضوء الهارب» تعكس، في سياقها كمعنى، قيمة تسارع الأحداث ومضيّ الوقت واستغوار مرارة الخيبة، وأن بروز هذه التيمة يتم من خلال ثلاثة شخوص اختارت لمصائرها مجريات خاصة لكنها تلتقي جميعا، في نهاية المطاف، عند الشعور بفراغ ما لعله فراغ الآني المتحول باستمرار إلىً أوشام حائلة على جسد التجربة.

2

ترد عبارة «الضوء الهارب» المستعملة كعنوان للرواية، في مواقع مختلفة من النص حيث تقترن تارة بعملية الرسم وتارة بالذكريات التي تفقد بهاءها المتوهم. ففي صفحة **42** نقرأ: «أقف أحيانا متجمدا أمام القماشة ماسكا بالفرشاة وأنا أراود الضوء الهارب الذي استشعرته من قبل مرئيا حاضرا داخل ما أرسم». وفي صفحة **152** نجد: «... كل الذكريات المشعة يهرب ضوؤها فتبدو شاحبة مثل صدى المرايا». وفي صفحة **177** يقول الراوي: «...عليّ أن أعود إلى الخطوط والألوان لألاحق الضوء الهارب مني باستمرار». والملاحظ أن الرواية تبدأ مساء عند انفلات الضوء إلى العتمة: «صوت المؤذن ما يزال يعلن غروب شمس هذا اليوم» (ص**9**) أي أ ن الوقت قائم ما بين «عشوة المساء وعتمة الليل» (ص**9**). والمعروف أن هنالك معتقدات ترى بأن الحكمة أو الحقيقة هما بنتا المساء، وأن طائر المينيرف لا يشرع في التحليق إلا عند الغروب: فهل الضوء الهارب هو ضوء الحكمة المستعصية؟ وهل الحكمة قائمة في الصيرورة أم في المنفلت عن قانونها؟ ثم ألا يمكن تصور (العيشوني)، بطل الرواية، وقد استبد به الفرح العارم حتى تخيل أنه يوشك أن يطير، كطائر المينيرف ذاته؟

3

تتألف رواية «الضوء الهارب» من خمسة فصول تشكل في مجملها بنية محكي متبنين يكشف نفسه على نحو تدريجي. إذا كانت مواقع الفصول (باستثناء الفصل الخامس) تتتابع زمنيا داخل المبنى العام للنص، فالفصل الأول يحكي قدوم فاطمة قريطس إلى طنجة واتصالها بالعيشوني، والفصل الثاني يحكي حديث العيشوني إلى فاطمة عن ماضيه وعن علاقته بغيلانة أمها ثم اختفاء فاطمة فجأة عن أنظاره، ويحكي الفصل الثالث عودة غيلانة من مدريد واطلاعها على حدث مرور فاطمة بطنجة واختفائها بعد ذلك، والفصل الرابع يشكل رسالة فاطمة إلى العيشوني من فرنسا حيث أصبحت تقيم، إلا أن محكي الفصول متراكب، يتقدم في حركة بندولية بين الماضي والحاضر، ويتقاطع مع سرود هامشية وأخرى مركزية تعمل على بلورة تباعد ساخر. ويجب أن نقول بأن الرواية، حسب تعقد ابعادها، تروى من زوايا سرد مختلفة (هي زوايا سرد العيشوني، وفاطمة، والراوي العليم) لكنها تتوفر على توازن شبه مطلق بين مجالات السرديين)العيشوني ص**53**، فاطمة ص**55**، الراوي العليم ص**49**). لكن تعدد زوايا السرد لا يُخفي مركزية العيشوني وسيطرته المطلقة باعتبار أن محكي الرواية ككل إنما هو مادة تنعكس في فسيفساء وعيه، وتشكل موضوعا للبحث عن تأويل خاص لوجوده . إن هذا أيضاً هو ما يفسر دلالة عدم وجود سرد مستقل لغيلانة: فهذه المرأة، رغم دورها المحوري في الرواية، تبدو فاقدة الشخصية نظرا لارتباط مشروعها الحياتي بالآخر (سواء كان هذا الآخر العيشوني، أو فاطمة أو «االروبيو»)، خلافا لفاطمة التي سترفض كل مشروع لا ينطلق من قناعتها الداخلية واختيارها الحر. إن هذا ما يدفعنا إلى الاستنتاج بأن «الضوء الهارب»، من ناحية البنية والعلائق، هي رواية شخصيات لا يرتبط مشروعها بأية صيرورة أو ديناميكية خارجية لأن مركز البحث ومعياره عندها هو الذات.

4

في واجهة مجاز السرد إذن شخصية العيشوني: رسام من طنجة جاوز الستين من عمره، وقضى طفولته ومراهقته وشبابه في منزل الرسام الإسباني (خُوسيّو) الذي حبّب إليه الرسم وعلّمه التصرف بحرية، بعيدا عن كل ضغط مادي. إنه الآن في طنجة يستعد للشروع في الرسم عندما تقتحم عليه البيت، ذات مساء، فاطمة بنت عشيقته السابقة غيلانة. لا تأتي فاطمة فقط لتحتل برهة من الزمن مكان أمها الشاغر، وإنما لتسأل الرسام عن طبيعة علاقته بها وكيف بدأت وكيف تطورت. وبما أن العيشوني جاوز الستين فإن قراءته للأحداث الماضية من حياته مع غيلانة تتحول إلى تحليل دقيق ليس لتلك الأحداث وإنما لانعكاساتها الطيفية على وجدانه، ولكيفية إدراكه لها عبر حجاب السنين. هكذا نلاحظ أن العيشوني ليس مجرد شخصية فقط، وإنما هو مُؤوِّل مركزي لتطورات المحكي بفعل التعليقات الكثيرة التي يعقب بها على كل مرحلة من مراحله. تنبع أساسا هذه الوضعية من إدراكه الضمنيّ لمركزية مكانته التي تعكس فحولته وقدرته على الانزواء ومراقبة التطورات. من هنا ينبثق بحث العيشوني عن حكمة ما وراء حياته وعمله كرسام: فلقد توقف عن الرسّم بالطريقة التي تعوّد أن يرسم بها واتجه إلى البحث «عن نبض لا تطمسه الخطوط ولا الألوان» (ص**20**)، ومن جهة أخرى فإنه يعيش شعورا متناقضا بين الرغبة في اقتناص فرص الحبّ المتاحة، وبين شعوره بهشاشة العالم واستحالة الإمساك بانفلاته بسبب تلك الهشاشة ذاتها. ورغم حرصه على الوصول إلى حالة تآلف بين الوجود والكينونة إلا أنه مع ذلك يعاني من فصام بين معيشه ونزعاته التدميرية التي ترمي إلى نقد الطبقات المتنفذة.

في مقابل العيشوني هنالك امرأتان: غيلانة وابنتها فاطمة. غيلانة ولدت بطنجة في الثلاثينات من أم متحررة وأب كان يعمل بالجيش الإسباني قبل الاستقلال، وكانت هي تعاشر إسبانيات زميلات لها وتطمح إلى تقليدهن. وعندما أنهت دراستها الثانوية رفض أبوها أن يرسلها إلى مدريد لتواصل تعليمها فكبتت رغبتها في التعليم ورضيت بالعمل في إحدى وكالات الأسفار. تعرض نفسها على العيشوني موديلا عاريا فيحبها كجسد جميل وروح متفتحة، وعندما تحاول التعرف على رأيه في الزواج تكتشف عزوفه عن كل استقرار فتتزوج بطلب من أبيها وتسافر رفقة زوجها إلى فاس حيث تجد نفسها وجها لوجه مع فداحة العيش في قفص رجل حشاش ومتحرر. تحمل وتضع ابنتها فاطمة فتحصل على الطلاق وتذهب إلى مدريد للعمل في مطعم هناك. لكن زميلها «الروبيو» يحتال عليها ويستغلها فتبيع جسدها لحسابه وتحترف الدعارة قبل أن تتخلص من أحابيله. إثر ذلك تعمل لحسابها الخاص في سياق انفتاح إسبانيا، بعد موت فرانكو، وتقاطر الخليجيين عليها بعد ثرائهم المفاجئ بسبب ارتفاع سعر الذهب الأسود في الأسواق العالمية. كانت غيلانة تطمح إلى تعليم ابنتها فاطمة في أوروبا لتعويض نقص تعليمها هي، وهكذا شرعت في

محمد برادة

مراكمة الأموال و«تبييضها» عن طريق الحج إلى الديار المقدسة وممارسة الصدقة، لكنها ستكتشف أن ابنتها صاغت حياتها على نحو مختلف تماما عن مشاريعها.

أما فاطمة فولدت بفاس في أواخر الخمسينات، ووجدت نفسها محاصرة بتدليل أبيها وغياب أمها التي تعمل بالخارج وتحقق لها رغباتها المادية. وعندما التحقت بالدراسة الجامعية تعرفت على زميلها الداودي الذي كان يناقش أساتذته بجرأة، ويعمل ضمن منظمة سياسية محظورة. وعلمها الداودي أن التحرر يبدأ من الجسد فاقتنعت بذلك وحملت منه دون زواج قبل أن يُرمى به في السجن. وعندما وضعت مولودتها ندى فوجئت بخروج الداودي من السجن بعد عفو عام، وعدم استعداده للزواج منها وانصياعه للعمل مع أبيه في مزرعة لتفريخ الدجاج. عند هذا الحد تقرر فاطمة الإمساك بخيوط حياتها، خاصة وقد علمت أن أمها إنما كانت تمارس الدعارة بمدريد. هكذا تهجر أباها وابنتها وتسافر إلى طنجة للحصول على جواز سفر، وللتعرف على عشيق أمها السابق الذي سيفتح أمامها أبواب مجتمع طنجة ويعاشرها كخليلة. بعد ذلك تختفي فاطمة، لترسل إلى العيشوني رسالة طويلة من مدينة مانتُون في فرنسا تطلعه فيها على تفاصيل حياتها هناك، وعلى التجارب التي مرت بها، خاصة محاكاتها لشخصية مدموازيل بُونون في رواية (جاك لوران) «آحاد الآنسة بُونون» بحيث كانت تذهب مثلها إلى متحف رُودان كل أحد لاقتناص الزبائن والعيش على نفس السيرورة، مع تعرّفها على السيد بيدال، وهو فرنسي من مواليد المغرب، الذي عرض عليها الزواج ووافقت والدته السيدة شانطال على ذلك. إنها الآن تعيش حياتها بشكل عادي ومملّ، لكنها تنتظر بقوة وفاة السيدة شانطال لتطمئن إلى مصيرها الذي أصبح معلقا بيد الأقدار.

5

لقد كان من الضروري الإمساك بهذه التقاطعات الدقيقة لكونها تتيح لنا التأمل في السياق الزمني الكامن في عمق الأحداث. هكذا نلاحظ أن محكي رواية «الضوء الهارب» يمتد من أواسط العشرينات، وهو تاريخ ميلاد العيشوني، إلى سنة **1990** تاريخ كتابة فاطمة لرسالتها. وخلال هذه الفترة التي تستغرق أكثر من ستين سنة تنشأ، على المستوى التاريخي، أسطورة طنجة الدولية بانفتاحها وبابليتها التي تحتضن كل اللغات، واختلاطها الذي يحرر من الثوابت العرقية أو يضعها موضعا نسبيا، قبل أن تؤول الأسطورة إلى زوال بعد الاستقلال ورحيل الأجانب وانسداد الآفاق فتنفتح أبواب الهجرة، وتهب على البلاد موجة القمع السياسي والتحولات الليبرالية ليلتحق بالخارج جيل من الشباب المصدوم الذي يفضل الإقامة هناك والاندماج في هوية جديدة مهما كانت مصاعب هذا الاندماج. ورغم أن ملامح هذه السيرورة التاريخية مغيَّبة في الرواية أو يقع الإلحاح على غيابها بفعل التركز الذاتي للعيشوني، إلا أن وجودها يحقق بنية الكتابة، ويشكل ضمنيا حافز العيشوني للتأمل في التغيرات التي تمس مظاهر الأشياء والعلاقات، وتترك الباطن الحي حبيس شرانق العادة والتكرار.

6

تجري أحداث «الضوء الهارب» بين طنجة وفاس ومراكش ومدريد وباريس ومانتون. لكن طنجة تبقى مع ذلك هي الفضاء المركزي بل المرآة التي تعكس في عمقها تحرر الشخصيات وبحثهم عن مصائر محايثة لذواتهم. وتتجلى أهمية طنجة، بصفة خاصة، في يوميات العيشوني (الفصل الأخير من الرواية) حيث يبرز اهتمامه المتميز بتاريخ المدينة، الأسطوري واليومي، الذي يعتبر المضاعف لاهتمام حاضنه (خوسيو) بالفضاء الحضاري الذي شاهد ميلاده وتشكله في أوائل القرن «على أساس من فسيفساء بشرية تتزاوج وتتحاور وتأوي مغتبطة تحت فضاء واحد» (ص**45**). وعندما كان العيشوني في مراكش، خلال إقامة قصيرة مع خليلته المراكشية كنزة، شعر بأنه لا يستطيع العيش بعيدا عن البحر، لا باعتباره كيانا ماديا وإنما لكونه يعكس فسحة وانفساحا ومدى وشساعة ورحابة وفضاء. إن هذا الفضاء الذي لا يوصف في الرواية على نحو واقعي وإنما من خلال محمولاته الدلالية والتأويلية هو الذي يشكل الحافز والإطار لعلاقات حب العيشوني وغيلانة، هذه العلاقات التي، رغم تقلبها، تتواصل فوق خلفية تحرر الفضاء ذاته. إن العيشوني، شأنه في ذلك شأن الجيل الذي ولد في طنجة قبيل الحرب العالمية الثانية، كان يشعر بأوروبا على نحو عميق إذ لا يوجد بينه وبينها سوى مضيق من الماء. لقد كان بإمكانه أن يرى من شرفة منزله رمال الشاطئ في الضفة الأخرى لإسبانيا التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من وجدانه. من هنا كانت طنجة، بالنسبة له، فضاء مفتوحا على مصراعيه لاستقبال المؤثرات الخارجية. إن غيلانة ذاتها كانت مندمجة في هذا الفضاء الحضاري: من هنا يمكن أن نفهم أن ذهابها للعمل بإسبانيا كان من أجل تحرر أكبر لوعيها وتفتح أشد للقيم الكامنة في وجودها، بصرف النظر عن المآل الذي آلت إليه. أما فاطمة فقد ولدت وعاشت بمدينة داخلية مغلقة، ومن ثم فإن ذهابها إلى فرنسا واغترابها هناك لم يكن نتيجة تشبع بفضاء حضاري وإنما محاولة لقطع كل صلة بينها وبين واقعها الذي صنعه الآخرون.

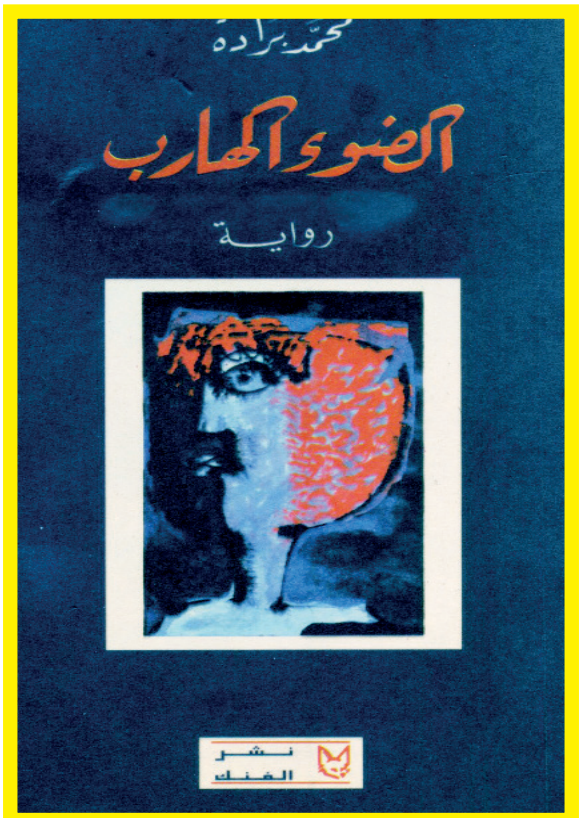

7

ويلعب مفهوم الوساطة، في أبسط معانيه لدى (روني جيرار) وهو المضاعفة، وظيفة حيوية في «الضوء الهارب» على صعيد خلق علاقات معقدة داخل حبكة الرواية وإبراز مآزق شخصياتها: فالعيشوني، الذي يعتبر خوسيو «أباه الحقيقي»، رسام يعاشر النساء ويرفض الزواج مثله في ذلك مثل خوسيو الذي نعرف أنه كان رساما أعزب وأن العيشوني اطلع على صور له صحبة خليلات أنيقات. وكانت غيلانة، منذ صباها الباكر، تحاول تقليد زميلاتها الإسبانيات. ومع أننا لا نعرف بالضبط على أي صعيد كانت محاولة التقليد تلك إلا أنه يمكن الظن أن تمردها على أسر الزواج فيما بعد، والانطلاق في مغامرة العمل التي انتهت بالدعارة، ربما كان تحت تأثير تصور ما لمعيش المرأة الأوروبية. وتصطنع فاطمة، وهي المثقفة، وساطة «أدبية» لصوغ تحولاتها الحياتية: هكذا قرأت رواية «آحاد الآنسة بونون» ثم شرعت تحاكي في الواقع ما كانت الشخصية الروائية تمارسه على صعيد الرواية. تنبني علاقة العيشوني وخوسيو من خلال مضاعفة أساسها الإعجاب، وتجري علاقة غيلانة وزميلاتها الأوروبيات في سياق علاقة أساسها الرغبة في الاختلاف، أما علاقة فاطمة و«الآنسة بونون» فتجري على صعيد مضاعفة أساسها انعدام التلقائية والفراغ الذاتي والرهبة من ولوج عالم غريب إلا عبر طقوس غرابة ذلك العالم ذاته.

8

يبدو من الضروري الآن التأمل في وضعية العيشوني في الرواية، أي التأمل في وظيفته. ففيما يبدو أن السرد متركز حول اهتمامه كرسام ومفلسف لعلاقاته الذاتية بالآخرين وبالزمن، ومحب فحل، إلا أنه يبدو مع ذلك أن هذه الحيوية متعددة الأبعاد تتلخص وظيفيا في دور الشاهد على زمنية الآخرين، فيما تمر غيلانة وفاطمة بحياته وتبتكران لنفسيهما عالما خاصا (في فاس ومدريد وباريس) محفوفا بالمصاعب والإنجازات الأليمة. في هذا الإطار تغدو طنجة، علامة الانفتاح، أسطورة منغلقة، وشركا منصوبا للعيشوني فهو لا يغادره. والمغامرة الوحيدة التي أخرجته من مدينته إلى مراكش لبضعة شهور سرعان ما تؤول إلى علاقة قارة فيفضل الهروب منها والعودة إلى طنجة على جناح السرعة. إن هذه الوضعية هي التي تدفع قارئ «الضوء الهارب» إلى التساؤل عن قيمة العيشوني كإنسان معزول ليس بسبب فردانية مصيره ولكن بسبب إشكال زمنيته (زمنية لذة الشهادة على التحلل والتلاشي). لذلك فنحن لا نعلم مطلقا كقراء ما إذا كان العيشوني، فعلا، شخصية محببة إلى نفوسنا ومنتهية. فهو يبقى، في نهاية المطاف، أشبه بشخصية تتسامى على هويتها عبر السرد والتذكر: إنه مجرد صوت يحكي عن نفسه وينتظر معرفة دوره في سرد الآخرين. من هنا يمكن أن نفهم تصرف العيشوني في يومياته، حيث يتجاوز وضعه كشخصية روائية أو راوٍ ليغدو قارئا خارجيا لمجموع عناصر وأحداث معيشه باعتبارها وحدة روائية.

9

لا أظن أن قارئ «الضوء الهارب» لن يشعر عند الفراغ من القراءة بامتلاء حقيقي. فالنص هو من جهة عملية إلحاح على بعض إشكالات المعيش (مثل إشكال أهمية العلاقات الجنسية عبر الحب، وانفلات الواقع وتأبّيه على الكتابة، والفشل الذي يترصد المشاريع الحياتية للشخصيات بسبب زمنية متحولة) لكنه يحفل أيضا بإشارات تعكس أدبيته الاستثنائية، من كافكا إلى دوستويفسكي مرورا بلورانس داريل و مالارميه وجاك لوران، فضلا عن تشبعه بإحالات تناصيّة كثيرة. إن رواية تستعمل فضاء طنجة كشبكة علامات تاريخية وحضارية لا يمكن ألا تتقاطع مع عالم بول بولز التخييلي كليا أو على نحو موضعيّ: لا يتعلق الأمر بحتمية اعتباطية، وإنما بحضور سنني للفضاء الواقعي في تخييل الكاتب الأمريكي، الأمر الذي ينقل هذا التخييل ذاته إلى مستوى الواقع. في هذا الصدد أنظر إلى قصة «مرض الزين» التي يتذكرها العيشوني لا باعتبارها محكيا شعبيا وإنما باعتبارها محكي محمد المرابط الذي تحول على يد بول بولز إلى رواية بعنوان «المرآة الكبيرة» **The big mirror**. إن هذه العلاقة التناصيّة تبدو أشد تعقيدا على صعيد بعض لحظات محكي «الضوءالهارب»: فتبنّي خوسيو الرسام للعيشوني عبر صفقة اتفاق مع أمه الأرملة في سوق شعبي يحاكي عملية أخرى في رواية بول بولز القصيرة «**Here to learn**»، حيث يتبنى مصوّر فوتوغرافي أمريكي فتاة مغربية هي مليكة كانت تبيع بضاعة ما في سوق شعبي، لينقلها بعد ذلك إلى عالمه الخاص في أمريكا. وإذا كانت تربية غيلانة، وأبوها جندي عمل في الجيش الإسباني، وسط زميلات إسبانيات، تذكرنا بتربية مليكة (وأبوها أيضا جندي عمل في الجيش الإسباني) من طرف راهبات إسبانيات، فإن شخصية العيشوني لا يمكن ألا تذكرنا بعمر الحمزاوي، بطل رواية «الشحاذ» لنجيب محفوظ: كلاهما كان في عمقه مهمشا (العيشوني بسبب أصوله التي يفرض على نفسه مقاطعتها، والحمزاوي بسبب ماضيه النضالي الذي يحاول نسيانه)، وكلاهما كان يعتبر الحب المرتبط بالجسد واللذة المحكّ الحقيقي لمعرفة الواقع أو الهروب منه. كلاهما أيضا كان يحاول اقتناص الدلالة الهاربة أو النشوة المستعصية في مجاز اللحظة المستحيلة المتمثلة في عشوة المساء أو في انبلاج أنوار الفجر.

10

الآن ما هي حكمة المساء؟

يدرك العيشوني أنه أضاع أشياء كثيرة بحيث لا يستطيع سردها إلا بالنيابة، وأن هذه الأشياء المضاعة هي متاعه الوحيد. إنه يدرك، كرسام، أنه أضاع ألوانا معينة فيفكر في تلك الألوان المستحيلة مثلما لا يفكر المبصرون. وهو يدرك أيضا أن قرينه الذي لا وجود له (لعله الروائي المنتظر؟) كان دائما إلى جانبه، وعندما يتحدث فإنه يتحدث كصدى لصوت ذلك القرين. فالمستحيل وما أضاعه هو ما يملكه فقط. هكذا تغدو الكتابة، مع مرور الوقت، مرثية. إن النسوة اللواتي نحبهن هن أولئك اللواتي هجرننا ولم يعدن أسيرات لآمالنا، وإن الفراديس الوحيدة الموجودة هي الفراديس التي فقدناها إلى الأبد ولم يعد بالإمكان سوى كتابتها أو تخييلها.

مَنْ سَمَّمَ كَرَزِي؟

عبد الواحد الغندوري

كُلُّ قِطٍّ هُوَ تُحْفَةٌ أَدَبِيَّةٌ.
ليوناردو دافنشي

عاد من مدينته إلى النزل الذي غادره صباح يوم أمس. استغرب موظف الاستقبال لهذا الرجوع، و سأله مبتسما : أنسيت شيئا بالغرفة؟

- أجاب فؤاد، والتعب بادٍ على وجهه:

- لا، أريد تجديد الإقامة.

رحب بفؤاد، وسلمه مفتاح الغرفة، ثم أخبره متوددا أنه سوف يحضر له صحيفته الصباحية. شكره وعند مدخل غرفته رمى الحقيبة غير مبالٍ، و في انتظار الصحيفة وقفَ أمام لوحة زيتية لقط مزركش، مسلما ألَعنان لعينيه كي ترتعا في عمقها، فجأة شعر بألوانها تتراقص أمام عينيه وصوت قطته البيضاء (كَرَزِي) يغزو مسمعه من بعيد، مما قاده إلى استحضار ما جرى داخل منزله يوم أمس، حين فتح الباب، و اتجه نحو مكتبته بغية الطمأنينة على كنوزها واختيار كتاب عن البحر يقرأه، فمد يده صوب الرَّف وكأنه يمدها لتلامس جسد غجرية، غير أن خشونة الغبار على سطح الكتب أفسدت متعة اللقاء، وقادت فؤاد إلى إنزال الكتب من على الرفوف لنفض الأتربة عنها، فبدأ بكتب الرف الأعلى التي وضعها فوق مائدة مستديرة، أثار انتباهه سطحها الذي لا غبار عليه. « الغبار أصاب الكتب لا سطح المائدة ؟! ». نوافذ البيت كلها مغلقة، لا يسكنه مع فؤاد سوى كَرَزِي، التي تخلفت عن استقباله للمرة الأولى.» من أزال الغبار عن سطح المائدة دون الكتب إذن؟!» سؤال عنّ لفؤاد، ثم تلاه سؤال ثان، وهو سابح في بحَر الاستغراب: « أين غابت كَرَزِي حارسة الكتب مَن شر كل فُوِّيسقة؟! ».

علق كل هذه الأسئلة إتماما لتنظيم المكتبة. فقاده البحث عن عُدَّة التنظيف إلى المطبخ ليجد علبة الجبن قد عُبثَ بمحتواها، شعر فؤاد بفتق قد طال دواخله وسرى سَم القلق عن اختفاء كرَزِي بعروقه، مما جعله يسرع في إفراغ المكتبة. امتدت يداه إلى الرف الخاص بالمجلات والصحف، حمل كومة الورق كمن ينقذ القش من ألسنة حريق مهول، فقفز من بين يديه فأر. واصل عمله لاعنا الفئران، معاتبا كَرَزِي التي خرجت تبحث عن نزوة عابرة في غيابه. عندما انتهى، أزاح المكتبة بعيدا عن الجدار لتقع عيناه على القطة البيضاء شبه ميتة، حملها مسرعا إلى البيطري، غير أن الأوان قد فات على إنقاذها لأنها أكلت السم في الشكولاته. «من قتلها ومسح سطح المائدة ؟ « وَسَّع فؤاد بهذا السؤال دوائر الحيرة والقلق بدواخله. الشكولاته. لا توجد في بيته سوى علبة قدمتها له نجوى هدية بمناسبة عيد ميلاده . عاد إلى المنزل وحمل صندوق الهدايا ليفتحه فقفز منه فأر عبث بهدية نجوى. « هل فكرت نجوى في قتلي ودست السم في الشكولاته ؟ « لم يصدق أنه هو صاحب السؤال، فسارع لتبرئة ذمة نجوى الصديقة المثقفة. هاتفها فلم تجب. جرفه تيار الشك من جديد فانفلت من ربقةٍ ذئبوية الإنسان منتصرا لصداقة قديمة. وتحت هول الصدمة لم يدر فؤاد كيف وجد نفسه أمام منزلها، يطرق الباب فتخرج أمها باكية:

- « نجوى ماتت بجرعة سم في الشكولاته، هذا المفتاح تركته لك قبل أن تسلم الروح لبارئها. «تلقى الصفعة بجلد. دون سابق تفكير، حمل حقيبته وعاد إلى النزل تاركا نيران الشك تلتهم ما بدواخله. وهو واقع في مصائد الألغاز، انتشله رنين الهاتف، تحرك ببطء وفتح السماعة، فحياه صوت الموظف: « السيد فؤاد لقد توصلنا برسالة لك من السيدة نجوى». وضع فؤاد السماعة بهدوء غير معهود وناجى نفسه: « لا. نجوى ماتت مسمومة، ورسالتها قد تقتلني، من الأفضل إهمالها وتسليم مفتاحها لقارئ كف حاذق يفك لغز موت كَرَزِي.»

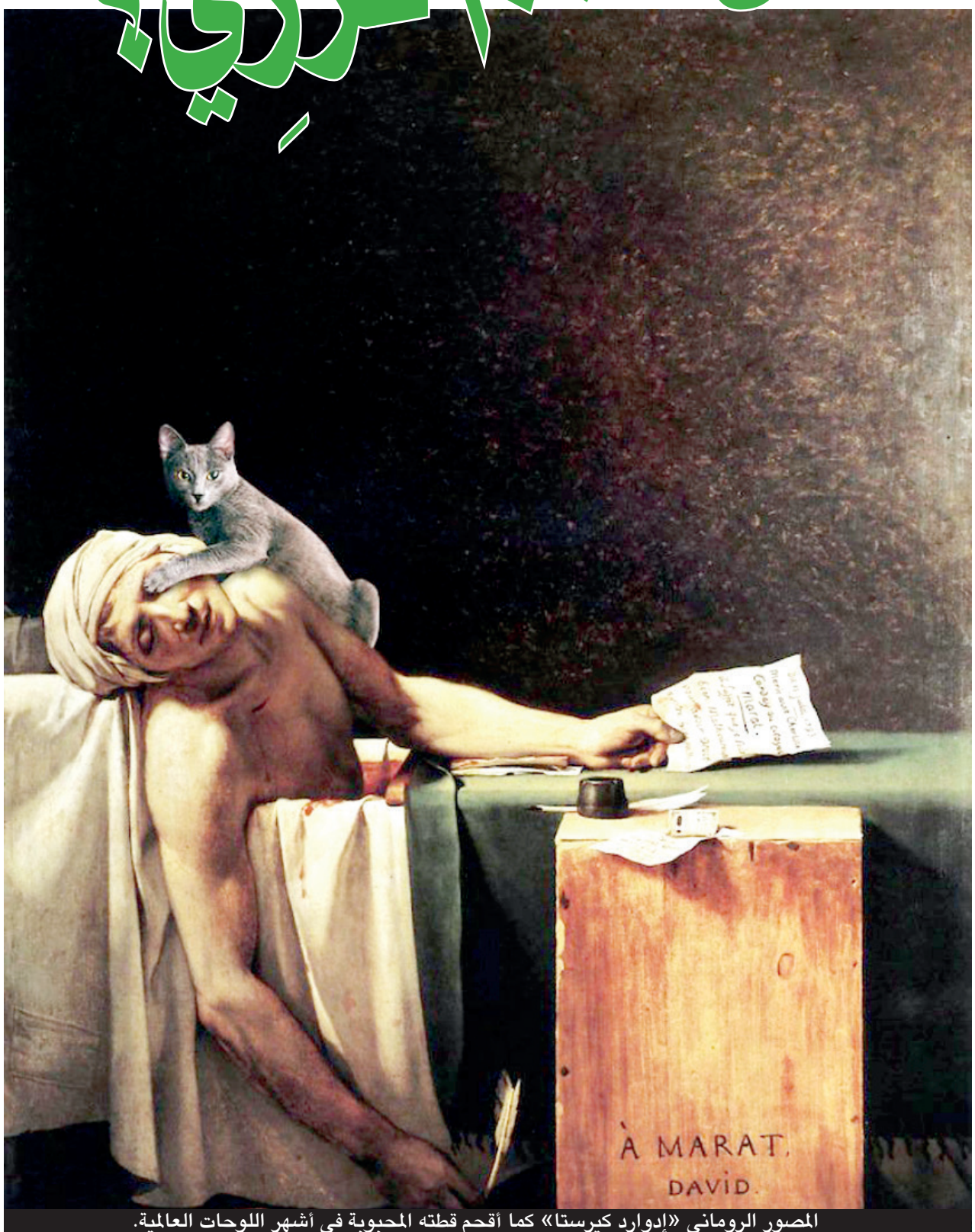

المصور الروماني «إدوارد كيرستا» كما أقحم قطته المحبوبة في أشهر اللوحات العالمية.

أحمد لمسيَّح

إيتوسحر

وعدتك نضيَّع لساني
لكن القلم معكَّس
زمم الطلسم
ردمو في اوراق دايخة
ودَسُّو في اصباعي
كلما لمستك في سمانا تكهرب « المتوسط «
ومد كفو
زوَّل لكفان
حط لنا حلمة ب « شراعها «
وغمَّض عينيه على طيشنا
حن
ومحال يعاود يحن .....
نقَّزْنا الموج مستورين بالحلمة
وطحنا في لوراق .....
عنوان قصتنا : شاعر وقصيدة (مساكن).
تيحلمو يكتبهم الموج
بلا ما يغرقو .
ظلهم على الما — معانقين فيه
والريح جوق ينفخ في طريق « الرحلة « .
يمسح الضو على السحاب
ينحت الظل
وقول للعشاق : طيرو ... طيرو
را المتوسط عامر فخاخ .
فتَّشتْ فيَّ لقيتك المبدا
قريتك لقيت سر اهداني ل» كنز الكتبة «
احفرتْ في الظلام وضوَّى فيَّ الغابر ،
اجذبتْ وتحيَّرت
وسلَّمتْ روحي للمستور
طفتْ على سري
وما بغيتْ نلقى جواب .
قبل ما نكون حاضي لحدود
إينا موجة تجيبك
بغيت زغرودة نهار تولدتْ في الكتابة تْوَلْوَلْ .
حرقتْ « شراع « اوراقي : مالي بحر ولا بر ....
سمايا تسترني بغيومها
وتعطيني « قناع « باش نكتب احماقي
إيلا عقلت عليه .

إيلا خلاَّني المتوسط الكويفر ،
أش جابني لحومة العقل وانا مسيَّح بوهالي ؟
شميتْ ريحتك
مسَّدْتْ شعرك وذْهنتْ سوالفك
ورشّيتْ عليك ما زهر
وخليتْ الحسون يغرد موَّال الوروار
ومشيتْ للجنب ننتظر « قدومك الملكي « أو نحرق سباح
ما بان علم مهزوز
وكانت الفرحة مغطية السما
.....
كان العيد كيزحف
خاف وقتو يفوت
(.... واش عقلتِ عليَّ
.نسيت ،شوية تفكرت
.كنت في لوحتي وكنت في قصيدتك
وغنينا : الحدود اللي درقوك يريبو .)
.....
طار منا الحلم
ادفن راسو في الضو باش يتحرق
(واش ذنب لحباب هن ولهيه ؟)
راب « الخَيال « واردم السر
وعْلاسد بيناتنا في امواج من الدم .

من أعمال الفنان التشكيلي المغربي أنس البوعناني

الأستاذ أحمد اليبوري

مثقف أصيل

نجاة المريني

أسعد اليوم بالمشاركة في هذا اللقاء الأدبي التكريمي الاحتفائي المنظم بمناسبة تقديم الأعمال الكاملة للأستاذ أحمد اليبوري التي صدرت في جزأين ضمن « منشورات المدارس» تحت عنوان « مجال السرديات العربية « من خلال نقطتين :
الأولى : الأستاذ أحمد اليبوري رائد في التربية والتعليم ،والتكوين والتأطير.
الثانية : قراءة في كتابه « ذاكرة مستعادة : عبر أصوات ومنظورات » .

1 – أحمد اليبوري رائد في التربية والتعليم والتكوين والتأطير

الأستاذ أحمد اليبوري قامة رائدة ، علما وخلقا ، تواضعا وشموخا ،وفاءً وإباءً ،

الأستاذ أحمد اليبوري علامةٌ مضيئةٌ في تاريخ الفكر والأدب ، إسهاماته في التربية والتعليم والتكوين والتأطير ،وفي الكتابة والتأليف، تشهد عبر الزمان والمكان بعلوِّ كعبه وسموق فكره ، يعمل في صمت وهدوء وأناة وشغوف ، قامةٌ متلألئة في رحاب الدراسات النقدية الروائية الحديثة ، لا تزيده الأيام إلا تألقا وبريقا ، ولا السنوات إلا توهُّجا وتمكنا .

اليبوري ذو كفاءة عالية في سبر أغوار النظريات الغربية الحديثة في مجال الرواية وما يستلزم ذلك من مناهج ملائمة تسعف على دراسة المتن الروائي وتفكيك بنيته برؤيا جديدة وأدوات إجرائية مناسبة قادرة على مواكبة تطبيقات عملية على الإصدارات المغربية المعاصرة أو القديمة ، آراؤه وازنة في كل ما يقدمه دراسةً ونقداً ، توجيها ونصحا ، فلا يملك طالبُ العلم إلا أن ينبهر بتلكُمُ القدراتِ العلمية الشامخة فيستفيدُ منها ويُفيد .

اليبوري شخصيةٌ قوية ذو همَّة عالية وأخلاقٍ رفيعة ، لا تُغريه سلطة ولا جاه ولا َمال ، يُغريه عمله الجادُ يستغرقُ في لُجَّته ويُبحرُ في أجوائه ملتذّاً بما يجد فيه من الفائدة والمتعة وما يجنيه من تقدير واحترام سواءٌ تعلق الأمر بأساتذة رموز تركوا بصماتهم في شخصيته أو بمجايليه ومريديه وأصدقائه وطلبته ، تُزَفُّ التهاني إليه في كل وقت وحين مُضَمَّخَةً بعطر المحبة والاعتزاز والتَّجِلَّة والتوقير .

الأستاذ أحمد اليبوري رمزٌ من رموز الثقافة المغربية بهاءً وعطاءً وسموقا ،ومفخرة لمدينتنا سلا، ولمؤسسة النهضة بسلا ، ومفخرةٌ للجامعة المغربية وللثقافة المغربية ، نجح في اكتساب محبة الجميع وتقديرهم، ونجح في تكوين أجيال من الباحثين الشباب في التهمُّم بالأدب المغربي الحديث وفي الارتواء من ينابيع المناهج الغربية على اختلافها ،يقول الأستاذ اليبوري في حوار سابق مع جريدة الاتحاد الإماراتية ، 24يوليوز 2000 :» ليس هناك منهجٌ نقدي أفضل ، بل هناك ضرورةٌ للتكامل بين المناهج ، المنهج السيميائي ،المنهج الشكلي ، والمنهج التحليلي النفسي والمنهج البنيوي التكويني .... إن لدينا مناهجَ يمكن أن توفرَ قراءات مختلفة لكي نقترب من النص الذي له أبعادٌ متعددةٌ وطبقاتٌ مختلفة ، وفي هذا الحال على الناقد أن يُخضعه لكل المناهج « .

أحمد اليبوري باحث رصين ومَهيب ، يعملُ في صمت ونكران ذات ، له دورٌ متميز في الارتقاء بالدرس الأدبي النقديَ الحديثَ في الجامعة المغربية ، بل هو من أكبر صُنّاع هذا الدرس في البدء وفي الختم ؛ بأبحاثه الجادة ودراساته الرائدة في القصة والرواية، فأرسى بذلك قواعدَ منهجيةً للدرس الأدبي النقدي ، برؤيته الثاقبة وحسن استيعابه للمناهج المعاصرة مفيدا منها بحذر وحسن تأتٍ.

نجح في تكوين ثلةٍ من الباحثين الشباب في حقل الدراسات الأدبية النقدية ، فأصبحوا رُسلَهُ في الجامعات المغربية وقد استوعبوا الدرسَ واكتنزتْ معارفُهم من صبيبِ أستاذ يَدِينُون له بما حققوه من نجاح وتألق، يقول عنه الأستاذ بوشعيب حليفي أحدُ طلبته :»ساهم اليبوري في تأسيس وعي جديد بالكتابة ، وخاصةً الإدراكِ والإنصاتِ لكل ما حولنا ، قبل أن نرسم تصورا معيَّنا، إنه يملك قدرةً استثنائيةً على تعليمنا لغة التفكير الجريء والتحليل ومنطق الحوار ، والاستحضار

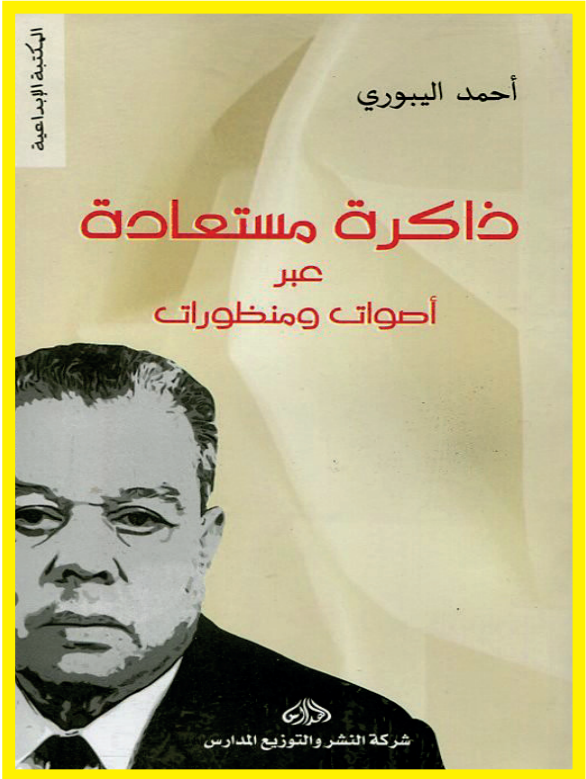

الدائم لما هو إنساني- أزلي». ويقول عنه الأستاذ حسن نجمي :» ما يلفت الانتباه في شخصية أستاذنا الكبير أحمد اليبوري هو صمته الذي يفرض وقارا خاصا ومظهرا مهيبا ...وعندما ينبغي تمجيدُ صمت رجل لا يعني أنه بلا رأي ،ولأحمد اليبوري رأيٌ العقلاء على الدوام، ولا يعني أنه بلا صوت ، فالرجل يعلو صوته عادة حين يتعلق الأمر بصيانة المبادئ ، وقيم النبل والأخلاقيات العلمية ، لكن الأمر يتعلق بصمت العالم العارف بمسارات الأشياء، الذي يجيد الإنصات للذات ، للواقع ، وللآخرين « .

واسمحوا لي حضرات السيدات والسادة، في هذا المجلس الموقر، أن تعود بي الذاكرة إلى سنوات الدراسة الثانوية بمدرسة النهضة بسلا، حيث كان الأستاذ اليبوري متفانيا في أداء رسالته التربوية والتعليمية، أمينا في القيام بواجبه ، لا يمكن أن أنسى السنوات الجميلة التي كنتُ فيها تلكم التلميذة للأستاذ اليبوري، إنها عالقة بذاكرتي ووجداني لا تزيدها الأيامُ إلا رسوخا بأستاذيته واعترافا بفضله وريادته وشموخه، ولا تزيدها الأيام إلا حضورا وإشراقا.

الأستاذ اليبوري علَّمَني بإخلاص كما علَّم غيري من التلاميذ والتلميذات الإيمان بالدرس ، والتمرسَ بالقراءة، والتمكنَ من القواعد النحوية واللغوية ، لقد ارتسمتْ في ذاكرتي لوحةٌ مضيئة عن تفاني الأستاذ اليبوري في القيام بمهمته التعليمية ،وعن صارم توجيهه وفائق عنايته بتلامذته ،كان يُنَمِّي فينا حبَّ القراءة ويدعونا إلى الارتواء من ثمرات المطابع ويشجعنا على الاجتهاد والمثابرة ،وعلى الجرأة في التعبير عن رأينا في تحليل النصوص بحرية موجها ومصححا ومنوها في نفس الآن ، ولعلي ألتقط نعتا لإحدى طالباته في الجامعة المغربية (مسلك الدراسات العليا) حيث رددتْ على مسامعي :الأستاذ اليبوري أستاذٌ مجتهدٌ أمين ، سألتها : لماذا تقصدين بهذا النعت ؟ أجابتني مبررة نعتها :إنه يُنهك نفسه في دروسه رغبةً في الإفادة والتبليغ ، فلا يكلم أحدا بعد الدرس .

وعلى الرغم من أنني لم أكن من بين طلبته في قسم الدراسات العليا ، إذ اشتغلتُ بالمتن الشعري المغربي القديم وانغمستُ في أجوائه جمعا وتحقيقا ودراسة، فإنني كنتُ متتبعةً لبعض حلقات دروسه، مُواكبةً لأنشطته العلمية في رحاب كلية الآدابَ وفي مناقشته لبعض الأطروحات الجامعية أو في غيرها من المحطات التي أرسى قواعدَ الكثير منها بجرأة في رئاسته لاتحاد كتاب المغرب ،أو في الندوات العلمية التي كان يشرف عليها وهو رئيسٌ لهذا الاتحاد أوفي المناظرة الوطنية حول الثقافة بتارودانت أوفي موقفه الصَّلب والقويّ في مناظرة إفران كما حدثني عن ذلك أستاذ مشارك في تلك المناظرة مُبديا إعجابَهُ بكلمته الختامية باسم الأساتذة الجامعيين حيث لم يلتفتْ في هذه الكلمة التي أثارت غضب الكثير من المشاركين إلى الالتزام بالصيغ البروتوكولية ، ويصف الأستاذ اليبوري هذه الواقعة فيقول: «لم أقترحْ نفسي لإلقاء تلك الكلمة ، لكنني في الحقيقة لم أمتنع عندما اقتُرِحَ اسمي ، في نفسي شعورٌ بأنني لستُ صاحبَ مصلحة ، ولذلك سألقي الكلمة كما يجب أن تُلقى بعد أنْ كتبتُها رفقة محمد برادة كما يجب أن تُكتبَ وكفى ... ويضيف قائلا : أنا لم أسعَ إلى الحضور لإفران للمشاركة في هذه المناظرة حول التعليم ولكني دُفعتُ إليها باعتباري رئيسا لشعبة اللغة العربية ومكلفا بإدارة فرع فاس لكلية الآداب « كما يشير إلى ذلك في كتابه « ذاكرة مستعادة « ص 73، وهنا يتأكد وفاؤه لقيمة خلقية انغرست في كيانه ، أن يكون صادقا مع نفسه فلا يؤمنُ إلا بما يمليه عليه ضميرُه قولا وعملا في كل وقت وظرف .

رصّعَ الأستاذ اليبوري جبينَ المكتبة المغربية بمؤلفات ذات طعم معرفي خاص ،لحْمَتُها النظرياتُ النقدية الغربية وسُداهَا التحليل العميق لروايات مغربية ومشرقية بلغة صافية وأسلوب مشرق يتغيَّى التبليغَ والاستيعابَ ،منبها إلى إعادة النظر في النص الروائي بناءً على جزئياته المهمشة، داعيا إلى خلخلة ما يَجْهَدُ النقدُ في تكريسه من أحكام نقدية ، ومن ثم تعتبر دراساتُه وأبحاثُه إضاءةً نوعيةً في تأسيس منظور

جديد لقراءة النص الروائي ونقده برويَّة وحسن تبصر، منها:
- ديناميةُ النص الروائي، الصادر ضمن منشورات اتحاد كتاب المغرب سنة 1993؛
- في الرواية العربية : التكون والانشغال، منشورات شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، سنة 2000 ؛
- تطور القصة في المغرب : مرحلة التأسيس ، الصادر ضمن منشورات مجموعة البحث في القصة القصيرة بالمغرب ، كلية آداب ابن مسيك ، الدار البيضاء سنة 2005 ، وأصل هذا الكتاب رسالة جامعية في الموضوع نال بها الأستاذ اليبوري دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها تحت إشراف الأستاذ محمد عزيز الحبابي سنة 1967 بكلية الآداب ، الرباط ؛
- الكتابة الروائية في المغرب: البنية والدلالة، منشورات شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء 2006؛
- أسئلة المنهج (حول رسائل وأطروحات جامعية): منشورات شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء 2009 ،وأعتقد أن لهذا المؤلف خصوصيةً هامة ، تمثلت في نشر عروض مناقشات المؤلف لرسائل وأطروحات جامعية في الأدب والنقد ،أشرف عليها أو كان عضوا في لجانها بكلية آداب الرباط (1984 ـ 2001) وكلية آداب عين الشق بالدار البيضاء (1989) وكلية آداب مكناس ، وبهذا المنجز الأكاديمي يُفيد الأستاذُ طلابه حاضرا ومستقبلا من عروضه أثناء نقاش هذه الرسائل والأطروحات ، إذ شكلتْ هذه العروض دروسا توجيهية للباحثين وهم في أول الطريق لما يجب أن يستفيدوا منه في موضوعاتهم ومؤلفاتهم ونقاشهم للقضايا التي يؤمنون بها في ميدان الأدب والنقد ، والرواية والقصة ، وقد أحسن صنعا بنشر هذه العروض الغنية والمفيدة للطلبة وغيرهم من الباحثين .
- ذاكرةٌ مستعادةٌ عبر أصوات ومنظورات : منشوراتُ شركة النشر والتوزيع المدارس / الدار البيضاء، سنة 2014، وهو عملٌ أفادنا طلابا وباحثين وغيرَهم ما لشخيصة المؤلف من حضور وازن في السوح العلمية والثقافية، كتاب غنيٌّ وممتعٌ يحكي مسار حياة مثقف أصيل ونزيه ، يطلعنا على صورة مشرقة لمسار حياته وسيرورتها المتوهجة في فضاءات مختلفة : نشأة ودراسة وعن محطات حياته في الصحافة وتدبير الشأن العام سواء في اتحاد كتاب المغرب أو مواقفه الواضحة في مناظرة إيفران أوفي المناظرة الوطنية حول الثقافات ،كما لم يُغفل التنويهَ برجال تركوا بصمات واضحةً في شخصيته، ملخصا بذلك وفاءَهُ للقيم الخلقيةً في دَفْقها وخصبها ،يقول اليبوري عن هذا الكتاب « ذاكرة مستعادَة تكشف بطولةً من نوع خاص ، تتمثل في كبح الرغبة في الركض وراء البطولة والشهرة ، وتغليب المواقف الإنسانية التي تحاول تلغيم (وهم البطولة)»(ص7) ، وهذا صحيح ، فهو لا ينهج إلى الشهرة سبيلا وإنما تأتيه طوعا معلنة سموَّهُ وبهاءه .
- في شعرية ديوان روض الزيتون لشاعر الحمراء محمد بن إبراهيم المراكشي ، منشورات دار الثقافة، الدار البيضاء 2021 .

مؤلفات الأستاذ اليبوري أعمال وازنة لمشروع نقدي يهدف إلى مساهمة علمية وثقافية في تجذير الوعي بما للقراءات المتعددة من قدرة على خلق قارئ ناقد متمكن من استيعاب ما يدرسه قصة أو رواية أو نصا شعريا برؤية نقدية موضوعية وتصور منهجي جديد .

واحتفاءً واعتزازا بمنجزات الأستاذ احمد اليبوري أصدرت « شركة النشر والتوزيع المدارس» الأعمال الكاملة للأستاذ اليبوري في حلة أنيقة في جزأين تحت عنوان « مجال السرديات العربية « بمناسبة المعرض الدولي للكتاب في دورته الثامنة عشرة المنعقدة بمدينة الرباط ، من 1 إلى 11 يونيو 2023.

وقدْ سَعِدْتُ بإهدائي بعضَ مؤلفاته وقد صدَّرها بعبارات تقطر مودةً وتقديرا ،فكنتُ أتنسمُ فيها ومن خلالها أريجَ عطاء أستاذي وشموخَ شخصيته ، واجتهدتُ لاستيضاح مغالقها واستفدتُ مما حبَّرَهُ قلمُ صاحبها بلغة راقية واضحة وثمرات معارفَ زاهية ، فألفُ شكر له ما غرَّدَ طير على فنن أوَ أشرقتْ شمس على جبل .

2 – كتابه : ذاكرة مستعادة : عبر أصوات ومنظورات

شكل هذا الكتاب الصادر سنة 2014 ضمن منشورات شركة النشر والتوزيع / المدارس بالدار البيضاء محجةَ طريق ترسختْ في ذاكرة الأستاذ عبر مراحل حياته المتوهجة ومساره في دروب الحياة والبحث العلمي ، وريادته لمحطات ثقافية بنجاح وامتياز بلغة عذبة سلسة تنساب انسيابا يشعر القارئ فيها بمتعة القراءة ولذة الفائدة. ويذكر الأستاذ اليبوري في تقديمه لهذا الكتاب» أنه محكيٌّ ذاتيٌّ وسيرة ذاتية تعكس مرحلةَ اتسمتْ بالاضطراب والشك والقلق في ظروف اجتماعية خانقة « ص 6 .، إنه يلخص ما أراده تخليدا لحياته ومواقفه المشرفة ، مستدلا في مفتتح ذاكرته بما كتبه حافظ شيرازي(ت 792هـ) الملقب بترجمان الأسرار في كلمته الرائقة : مكتوبٌ على زرقة السماءَ بأحرف من ذهب ؛ على وجهٍ البسيطة : لا يبقى من الإنسان إلا مآثرُه « ، كلماتٌ مليئة بالعبر بنهج أسلوب الحياة بجمالية وفكر قوي ، فلتكن هذه الذاكرةُ تخليدا لمسار حياة صاحبها برؤية واضحة في البدء وفي الختم .

يشرق هذا الكتاب بملامحه وتدويناته بالتعرف إلى الأستاذ الناقد والعالم المبحر في تجاويف الكتابة والإبداع، والنظريات الغربية وظلالها في الإبداع الأدبي المغربي قصةً ورواية بروح الباحث المدقق والجامعي المتمرس في الكشف عن خبايا الأبحاث والإبداعات بدراية وحسن قراءة وتأويل .

أغراني الكتاب وأنا أقرأه بالوقوف عند شخصية أعرفها بوضوحها وصدقها وأمانتها ، لكن معرفتي لها من خلال هذا الكتاب زادتني تعمقا بتلك المعرفة ،وإصرارا على مواكبة الأحداث كما عاشها صاحبها وكما استظل بظلها في فتراتَ صعبة وعسيرة ،شعُرْتُ بكثير من الإكبار لهذه الشخصية الرائدة وهي تروي بصدق وأمانة حياة ذلكم الطالب والأستاذ الجامعي ومواقفه من الأحداث المختلفة بشجاعةَ وجرأة، لا تستقيم لغيره من رواة سيرهم ، سلاحُه في ذلك ما ارتواه في طفولته وتكوينه في شبابه من مبادئ خلقية وقيم إنسانية.

أجواء مختلفة تتضوع بعبير مرويات وحكي أطلق عليه الكاتب عنوانا لعله تخيرَه « ذاكرة مستعادةً «، النبش في هذه الذاكرة لم يكن أمرا ميسرا وسهلا ، وذلك من خلال نقطتين :

الأولى : إيمانه بسرد كل ما يتعلق بحياته الشخصية كما عاشها بوثوقيتها وملامحها في كل فترة .

الثانية : اللغة السلسة والمعبرة بقليل من العبارات والكلمات عن الكثير من المواقف والأحداث ، فهي كما نعتها الأستاذ النجيب نجيب العوفي لغةٌ استثنائيةٌ تتوخى الدقة والتركيز والاقتصاد والأناة والاحتراس.

إنه السهل الممتنع ، ذاكرةٌ حافلةٌ بالأضواء التي أنارتْ دروبَ حياته في لحظات مختلفة ، فكانتْ حاضرةً بأبعادها المختلفة بشجاعة وسموٍّ فكر وحسن تدبّر .

ارتسمت ملامحُ هذه الذاكرة كما ارتضاها في أربعة فصول : محكيٌّ ذاتي ، صوت المؤسسة في المؤتمرات والندوات والمناظرات، عرفان وتقدير، في مرآة الآخر .

وبرجاحة رأي وسمو خلق يذكر صاحبُ السيرة أن مواقفه الشجاعةُ في المؤتمرات أو في إيفران « لم يتمَّ اتخاذُها على أنهَّا تدخل في باب البطولة إطلاقا ، ولكنها تصف «الوضعيةَ الحدية « في الوجود ، عندما يصبح الإنسانُ أمامَ اختيار: أن أكون أو لا أكون ، أي عندما يتعلق الأمرُ بالتعبير عن الوجود والكرامة الإنسانية والحرية ... أمامَ ضرورة إعلان « موقف «مهما تكن النتائج « ص 7.

كتابٌ ذو حضور لافت يختلف عما عرفناه في قراءة المذكرات أو السير الذاتية ،ينحو فيه المؤلف منحى السارد الواثق من محكياته ومواقفه « بتغليب المواقف الإنسانية التي تحاول تلغيم وَهْمَ البطولة من خلال أوهام متعدة « تُتَوِّجُ بشهرة خادعة « ص8.

يضم الفصل الأول محطات منها ما عنونه بمذكرات وجعلها تتدثر بعنوان اختاره بعد تفكير وتأمل ب: « الذاتُ بين اليأس والأمل والشك واليقين « .وكان الحوار الذي أجراه مع صديقه يجري مجرى الدم في العروق ، حول سنوات حددها بالأرقام كما هي في ذاكرته براقةً واضحة ،من سنة 1952 إلى غاية سنة 2013 ،إنها ذاكرةٌ يقظةٌ ملمة بدقائق الأخبار والأحداث كما عاشها وفصَّل القول فيها .

وفي هذا الفصل يتحدث اليبوري عن سيرته من البدء إلى الختم ، من النشأة إلى حضور الباحث الطالب مدرسا بمدرسة النهضة بسلا ، ومنخرطا في العمل الصحافي بجريدة العلم مع نخبة من الصحافيين مشيرا إلى ظروف سياسية قلقة يلخصها الانشقاقُ الذي حدث لحزب الاستقلال بإنشاء حزب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية وظهور صحافة الحزب ممثلةً في جريدتي التحرير والمحرر .

كما يتحدث عن مسؤوليته العلمية والإدارية عن مجلة آفاق خلال فترة رئاسته لاتحاد كتاب المغرب (1983ـ 1989)، وكان نجاحه في تنظيم ندوات علمية في مدن مغربية مختلفة في موضوعات تهُمُّ الروايةَ وتاريخَ الحركة الوطنية وشخصيات تاريخية أو قضايا أدبية حول الرواية العربية أو المغربيةً ، أي أنه كان حريصا على بعث حياة ثقافية ناهضة تلُمُّ شمل كل المناحي التاريخية والأدبية والإبداعية، كما يشير المؤلف إلى مسؤوليته كمنسق بمجلة الوحدة التي كان يُصدرها المجلسُ القومي للثقافة العربية في الرباط حَذراً في هذه المسؤولية من الظروف السياسية التي كانت تعيشُها ليبيا باعتبارها الممولَ لهذه المجلة ،محتفظا بهدوئه في تسيير المجلة والحفاظ على استقلاليتها ،وكذلك كان الشأن في تسييره لمجلة المناهل المغربية التي رسم لها خطوطا عامة تتناول محاور منها : السلفية : ثوابت وسياقات ، اللغة والسلطة ، تجربة الإصلاح في المغرب ، وغيرها من الموضوعات ذات الامتداد العميق في الفكر، وفي الإبداع وفي المجتمع بالمغرب، في فترة التحولات؛ خاصة منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر «ص 54.

وبكثير من الدقة والوضوح يتحدث المؤلف عن تجربته في اتحاد كتاب المغرب وفي عمله أستاذا بكلية الآداب بالرباط مؤسسا لدرس أدبي نقدي حديث بنظريات ومناهج غربية أو نائبا للعميد بكلية آداب فاس وما عاشه من ظروف سياسية صعبة، لكنه كان قويا صارما في التعامل مع السلطة ،وكُلِّها مراحل بوأته مركز الصدارة أستاذا مربيا ومثقفا حرا كما كان معهودا فيه .

وفي فصل عنونه كالآتي :مواقفُ في مواجهة الاستبداد سنة 1973 ، سجل الأستاذ اليبوري موقفه كمثقف يؤمن بحرية القول والتصرف ،أيْ بمصداقية مواقفه في أيِّ ظرف ، في الفضاء العربي ،في مواقفه من الأحداث التي عاشها أثناء رئاسته لاتحاد كتاب المغرب ،فهو قوي صلد في التعبير عن آرائه مهما كانت النتائج (71) .

الفصل الثاني : وعنوانه « صوتُ المؤسسة «: حيث تطرق لأنشطته في المؤتمرات والندوات والمناظرات مفصلا القول أحيانا ومختصرا حينا آخر ، يقول عن الثقافة في إحدى خطبه منبها إلى ما للحرية من دور في أي إبداع أصيل : « إن الثقافةَ عامة والأدب خاصة لا يُنتجان وَفق الطلب وبحسب مقاسات محددة مُسْبَقاً من طرف مراكز السلطة سواءٌ كانتْ سياسيةً أو أدبية ، بل إن الثقافةَ والأدبَ وعْيٌ بالممكن ورفضٌ للسائد المكرور وتصويرٌ لما تزخرُ به أعماقُ المجتمع من تناقضات «ص 87، إنه يطرح «موقفه من الواقع المتأزم ، فمجتمعُنا يسوده الالتباس، وتتعددُ فيه الأقنعة، وتُستعار فيه اللغاتُ ، لتصبح هي نفسُها في دائرة الالتباس « ص 96.مواقف المؤلف كما تحدثَ عنها في المناظرة الوطنية للثقافة بتارودانت سنة 1986،أو في ندوة كتابة تاريخ الحركة الوطنية سنة ،أو ندوة النقد والإبداع أو ندوة المغرب عاصمة الثقافة العربية سنة 2003 ،أو غيرها هي مواقف مثقف أصيل يعبر بصدق عن الاختلالات التي يعرفها المجتمع وتعرفها الثقافة بعيدا عن كل المجاملات أو الولاءات .

الفصل الثالث : عرفان وتقدير ، وفيه يلخص الأستاذ اليبوري وفاءه لمن كان لهم الأثرُ العميق في حياته، يقول : « كان لعبد الرحيم بوعبيد وأبي بكر القادري وأمجد الطرابلسي ومحمد عزيز الحبابي ، تأثيرٌ عميق في سلوكي ووطنيتي ، وتكويني الفكري والأخلاقي ، بحيث لا يمكن أن أكتب سطرا عن حياتي ، دونٍ أن أذكرهم بتقدير وإشادة بالأدوار التي اضطلعوا بها ، كل في ميدانه ، في التعليم والسِّياسة ، وإذكاء الوعي الوطني والقومي باقتناع وتفان ؛ إنهم أربعةُ رجال ، أربعُ منارات « ص 119 .

الفصل الرابع : في هذا الفصل يؤكد الأستاذ اليبوري أن إنصاتَه للآخر يُتيحُ الفرصةَ كما يقول : «لأصوات خارجية أن تكون المرآة التي تمثل ما يعتبر تكاملا أجناسيا بين الصوت السير ذاتي (أنا) وصوت السيرة (هو)، ...ليساهم في تقديم المعلومات عن سلوكي وطبعي ، وبعض العادات الملازمة التي قد تكون في أبعد حدودها مثيرة للاستغراب « ص 135 ، كان وفيا للقيم وهو يقدم لهذا الفصل بعبارات تقطر تواضعا وتقديرا.

وجاءت كلمة الختام تأكيدا لإيمان المؤلف بكل اللحظات القوية والمواقف الصلبة التي اتخذها في مراحل حياته العملية في الكلية أو في اتحاد كتاب المغرب ، يقول : « أنا غير نادم على شيء فعلته ،وأؤكد لكم أنني كنت أحيانا أتجاوز صلاحياتي ، كمسؤول في الكلية أو في الاتحاد لإحقاق ما أعتبرُه حقا ، أو لإبطال ما أعتبره باطلا « ص 213 .

لقد سعدت بقراءة هذا الكتاب أكثر من مرة ، وفي كل قراءة أجد شخصية مختلفة لكنها شخصية تعددتْ مشارب عطائها وتنوعتْ ، لكنها تبقى شخصيةُ الأستاذ الملتزم لمبادئه وقيمه ، لا يحيد عنها ولا يبغي بها بديلا .

أرجو أن أكون قد وفَّيْتُ الكتابَ حقه وللأستاذ ما أكنه له من محبة وتقدير .

تمنياتي لك أستاذي بالصحة والعافية، والسعادة والهناء في ظلال أسرتك وبنيك وأصدقائك ومحبيك.

نص الكلمة التي شاركت بها في اللقاء الأدبي الذي نظم حول « تقديم الأعمال الكاملة للأستاذ أحمد اليبوري ، وذلك يوم الأحد 4يونيو 2023 / 15 ذي القعدة 1444 ، بالمعرض الدولي للنشر والكتاب في دورته الثامنة والعشرين بمدينة الرباط .

شاهدان يخالفان رأي الطاهر بنجلون

المصطفى اجماهري

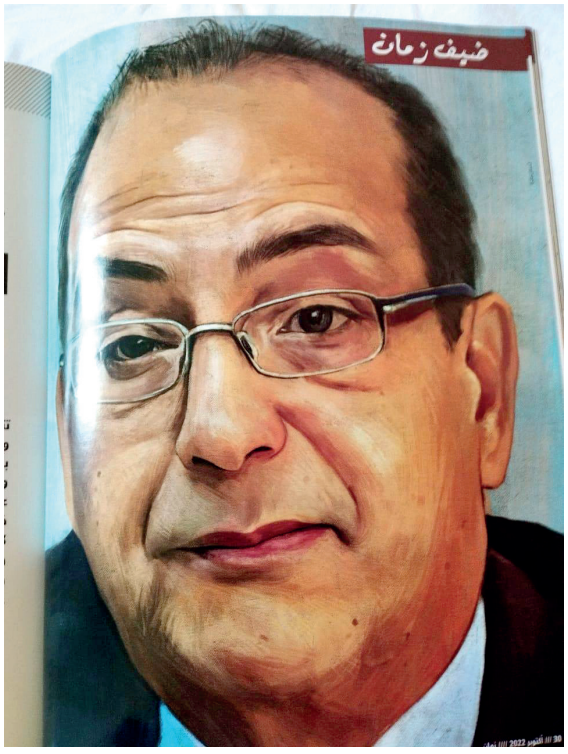

سعيد بنسعيد العلوي

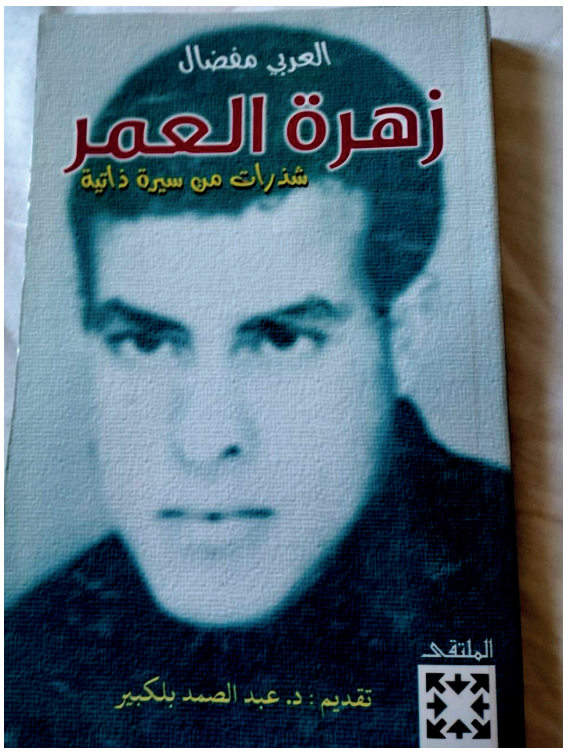

ليس في نية هذه المقالة التطرق أو الحديث عن الأعمال الأدبية الغزيرة للكاتب الفرنسي-المغربي الطاهر بنجلون، فقد كتب عن ذلك الكثير وما زال يكتب، إنما الغاية سرد بعض وجهات النظر المخالفة لبعض ما سبق أن ردده بنجلون، عدة مرات في وسائل الإعلام الفرنسية، وخاصة بالنسبة لموضوعين اثنين: يتعلق الأول باعتباره لفترة تجنيده ضمن الخدمة العسكرية الإجبارية بمثابة عقوبة، ويتعلق الثاني بادعائه التخلي عن عمله أستاذا للفلسفة بثانوية محمد الخامس بالدار البيضاء بسبب تعريب هذه المادة.

وفي هذا الصدد، يؤكد ذ. سعيد بنسعيد العلوي (في حوار مع مجلة زمان عدد أكتوبر 2022) أنه ليس صحيحا البتة أن يقال إن تعريب الفلسفة كان، في تلك الحقبة تحديدا، يعني حذف الفلسفة جملة واستبدالها، وأن ذلك هو السبب الذي حمل الطاهر بنجلون على الانتقال إلى فرنسا. ففي سنة 1971، خلف ذ. بنسعيد العلوي الطاهر بنجلون لتدريس مادة الفلسفة في قسم الباكلوريا الأدبية بثانوية محمد الخامس بالدار البيضاء. وقتذاك يوضح ذ. بنسعيد كان مقرر الفلسفة، يشمل الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس، في حين كان الفكر الإسلامي (والقصد به أساسا علم الكلام وفلسفة فلاسفة الإسلام، ولا صلة له بالتربية الإسلامية)، يقتصر على ساعتين في الأسبوع من أصل ثماني ساعات. ولذا يقول ذ. بنسعيد، إن ما قيل عن تعريب تدريس الفلسفة في التعليم الثانوي في المغرب يدخل في باب معاداة تعريب التعليم لأسباب إيديولوجية وشخصية.

ويمكن أن أضيف لذلك، وقد كنت تلك السنة تلميذا لدى سالم يفوت، أستاذ الفلسفة المعروف بثانوية الإمام مالك بالبيضاء، أن الدرس الذي تلقينا منه بالعربية لم يكن يختلف البتة عن مثيله باللغة الفرنسية. بل إن طريقة تدريس مادة الفلسفة بالعربية من قبل سالم يفوت كانت تتم بطريقة راقية وبيداغوجية عصرية لم نشعر فيها بأن تعريب المادة مس بمستواها. وقد استمر ذ. يفوت يلقن دروسه دون التقيد كلية وحرفيا بالمقرر المعمول به آنذاك.

أما بخصوص رأي الطاهر بنجلون بكون فترة تجنيده العسكري كانت بمثابة سجن مغلف أو اعتقال مهذب فهو أيضا يدخل في باب المغالاة. حتى أنه أفرد، سنة 2018، رواية تحت عنوان «العقوبة» للحديث عن هذه التجربة بشكل دغدغ فيه العواطف «الغربية». ذلك أن المناضل العربي مفضال في سيرته الذاتية الصادرة سنة 2012 تحت عنوان»زهرة العمر»، والذي كان بدوره مجندا في نفس الفوج مع الطاهر بنجلون له موقف مغاير في الموضوع. يقول مفضال : «أفزعني استمرار بنجلون في ترويج صورة مختزلة بائسة عن الخدمة العسكرية التي شارك في فوجها الأول مثلي... ما زال بنجلون يعتقد أن الخدمة المذكورة لم تكن إلا خطة للتحكم في الشبيبة التعليمية وقمعها مستدلا على ذلك بالشدة التي كان يتعرض لها المجندون أثناء التداريب وهي شدة هينة بالمقارنة مع ما يتعرض له المتدربون في جيوش الدول المتقدمة... ولا ينبغي أن ننسى أن التجنيد شمل فئات مختلفة ولا أن ينسينا ما اكتسبه هذا الشاب من تكوينات حديثة سهلت عليه الانخراط في الحياة الاقتصادية والاجتماعية». ناهيك على أن هذه الخدمة تبقى واجبا وطنيا مفروضا على كل مغربي ولا يعفى منها إلا في حالات محددة.

وكان سالم يفوت بدوره، في وقت سابق، قد خصص مقالة للحديث عن رواية «صلاة الغائب» للطاهر بنجلون أشار فيها إلى أن الروائي قدم في روايته صلاة الجنازة بطريقة مخالفة لما هو معمول به في هذه الصلاة. بينما روايته «تلك العتمة الباهرة» الصادرة عام 2000، التي استند فيها إلى شهادة أحد الناجين من تازمامرت (عزيز بنبين)، قد جرت عليه بدورها انتقادات لاذعة من الضحايا ومن عزيز بنبين تحديدا لما طالها، في رأيهم، من تشويه للتجربة.

إن حرية أي كاتب في قول ما يريد والتعبير عنها بالطريقة التي تريحه لا ينبغي أن تمنع غيره من أن يكون له رأي مخالف كما عبر عنه الشاهدان اللذان أتينا على ذكرهما، في هذه المناسبة، والحال أن أقوالهما لم تأت من فراغ بل عاشا مع بنجلون نفس التجربة في نفس الزمان والمكان، ولهما من الكفاءة العلمية والفكرية والاتزان ما يسمح لنا بالثقة في موضوعيتهما.

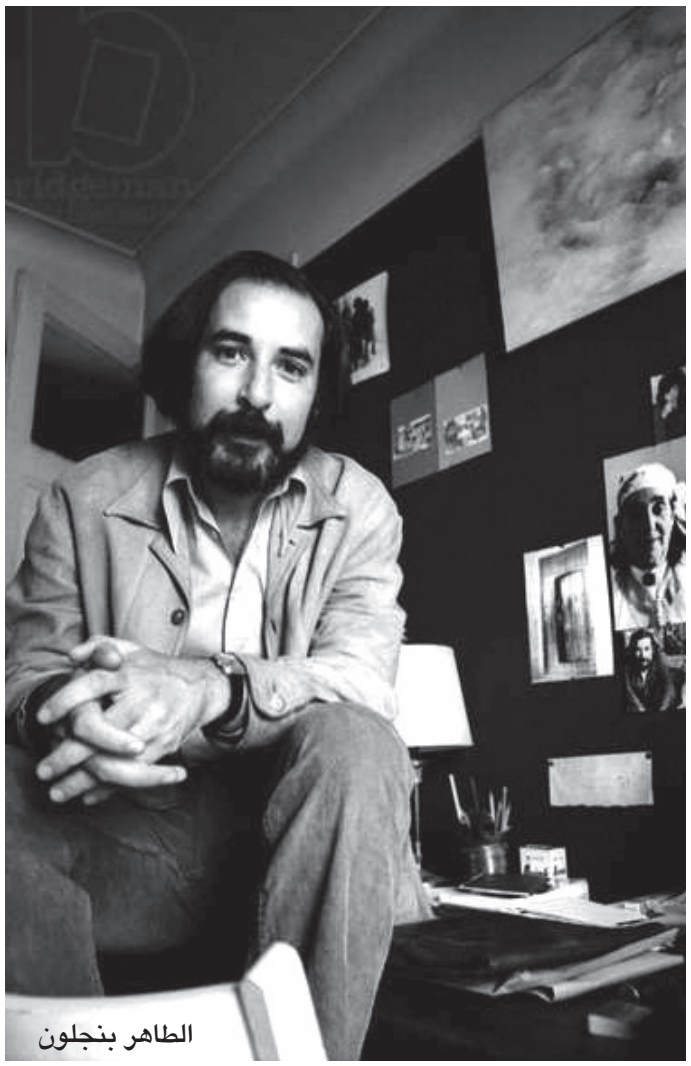

الطاهر بنجلون

من ينقذني من الحياة؟

مخلص الصغير

يا ربي
شعبي يبحث عن شعبي
تحت الأنقاضْ
يا ربي
بعضي يبحث عن بعضي
تحت الأنقاضْ
يا ربي
قلبي يسأل عن قلبي
فوق الأنقاضْ

هذا الزلزال يطيح بمئذنة اللّهْ
هذا الزلزالْ
يتحدى اللّهْ
اللّه اللّه اللّهْ
إن كنا أذنبنا يا اللّهْ
فلماذا الزلزالُ

وما ذنب الأشجارِ
وما ذنب الأطفالْ

شيخ مسحوق
تحت الأنقاض يصيحْ
من ينقذني من الحياة؟

أهلي ماتوا
دون حروب أو قتلِ
أطفالي ماتوا
وبقيت بلا فصلِ
أهلي رحلوا
لكنهمُ
لم يحيوا يوما
في هذي الأوطانْ

هذا الزلزالُ
يدمرُ يغتالُ
ويفتك بالإنسانِ
وبالأركانِ
وبالبيت وبالعنوانِ
وبالسقف وبالجدرانْ

صورة الذات في حوارات محمد مشبال

قراءة في كتابه « نحو بلاغة جديدة»

نادية الزقان

تَعوَّدنا من الساحة النقدية أنْ تَمُدَّنا بنصوص تعالج أجناسا وقضايا وإشكالات مختلفة ومتنوعة، كما تعودنا من البلاغي محمد مشبال إصدارَه لكتب تُساهم في تعميق مشروعه البلاغيّ وتدقيق مجالاته وتجلياته...غير أن المؤلَّف الجديد الذي وسمَه ب « نحو بلاغة جديدة: حوار في البلاغة» هو نصٌّ مختلف وطريف من حيث مضمونه، لأنه يجعَلنا نتعرّف على شخصيته الذاتية قبل الموضوعية، كباحث نهجَ لنفسه صراطا خاصا ومُتفرِّدا، إنّه عبارة عن سيرَة ذهنية سعى من خلالها إلى الكشف عن مَسيره الأكاديميّ والعلمي، فكان أنْ قدَّم لنا قصَّة تَفكيرَه المنهجي بمشروعه منذ لبناته التأصيلية الأولى...

الشيء الذي يدفعنا للتساؤل: لماذا كتب الدكتور محمد مشبال هذا النص ونشره؟

الجواب عن هذا السؤال المشروع طَرْحُه؛ سيأتي مُتناثرا عبر طياته وبيْن محاوره، هذه الأخيرة التي وَزَّعها في شكل أسئلة كانت قد طرحت عليه ما بين 2007 و2021م، خلال لقاءاته وندواته المتنوعة.

اختارَ الباحث هذا القالب بوعي نقدي ومعرفة بحدود ما تُوفّرُه الأجناس من إمكانات ومساحة للقول « لكاتب السيرة حُرية واسعة في إبداع نصّه السيَري، فالإطار النوعيّ الذي يَتحرَّك فيه لا تُثقله قيود صارمة أو تحكمه قواعد ثابتة [...] يُعنى بقول تاريخه الشخصي الخفي أو غير المكتوب وسرد ذاته والتفتيش فيها، أكثر مما يُعنى بطرائق القول وأساليب السرد»1 ، من هنا تكون السيرة باعتبارها ترجمة ذاتية، قالبا فنيا وَظّفه محمد مشبال الناقد عن قصد، ليَصُبَّ فيه بَوحَه ويُملي شهادَته النَّثريةَ، مُسوِّغا إيّاها في شكل «استبانة» = Questionnaire 2، ذات أسئلة مفتوحة، تُعطيه مساحةً كافية للإجابة المَقالية بالكمّ والكيف الذي يُريدُه، وإذْ أضعُ سطرا على مَلفوظ «يريده» ؛ أفكّر وأتذكّر أنّ الكاتب ? وهو أستاذي بالتعليم العالي ? باحثٌ وأكاديميّ وبلاغي كبير، يُجيد الإقناع بكفاياته التواصلية، والتي هي مُتأصِّلة في سلوكاته اليومية، فعندما يتحدث من خلال النصّ عن مواكبته للطلاب، أسترْجع انضباطه معنا في صباحيات دجنبر ويناير... الباردة، وحضورَه لقاعة الدرس بأتَمّ استعداد ونشاط، تَجعَلُنا نَلمَس فيه وعياً منهجيا وبيداغوجيا سديدا، وَكمْ يكونُ سعيدا بالإنصات إلى الاشكالات التي نحتاجُ فيها إلى توجيه أو استفسار، بل ولقد لمَحْتُه - مرارا - صابرا في تَفَهُّم بعض الأسئلة على بساطتها وسذاجتها أحيانا...

الآنَ وأنا أتأمل قولَه « المُؤلِّف الحقيقيّ ينبغي أنْ يكونَ صاحبَ مشروع؛ إبداعه الحقيقي في افتراع فكرة وتنميتها بالبحث وخلق سياق ثقافيّ حيويّ لها؛ فأهميّة أنْ يَكونَ للباحث مشروع تعني قدرتُه على خلق مجال للبحث وتلاميذه يُطوّرون المشروع ويُضيفون إليه ويسدون ثغراته. المؤلف لا يكتب لنفسه»3 ، أدرك شغفه بحقل المَعرفة والبحث الذي جَعلَه ينغمسُ في عالمهما حَدّ التّماهي، ممّا انْعكسَ عَلى شخصيته وحياته، مَدعوماً بإيمانه وحُبّه الشّديد لما يقوم به، ذلك أنَّ مفهوم (الباحث) عنده مُؤطرٌ بمعاييرَ صارمة وبالتزامات ضابطة، لا يَستطيع أن يَتَحَمَّلها إلاّ كلُّ شغوف مُتفانٍ، فيقول « إن الباحث الأكاديمي قلما يعيش لحظة ابتهاج في حياته؛ فهو طوال الوقت منعزل ومنهمك في القراءة والكتابة والتدريس والتصحيح وتحكيم الأعمال ومُتابعة الطلاب، إنه محكومٌ باعتزال الناس والابتعاد عن لحظات الابتهاج الجماعية في معظم أوقاته؛ مجبَرٌ على أن يعيش حياةً صارمة ومنضبطة إنْ قرّر أنْ يُنجز أعمالا حقيقية قادرةً على أنْ تفرض نفسَها على القارئ المُتخصّص في العالم العربي»4.

لطالما كان بالنسبة لنا نحن الطلاب؛ أستاذا مُتميِّزا بشخصيته المتواضعَة والمَهيبة في الآن نفسه، الفريدَة والمسؤولة والمُتعاونة...يُوجِّهنا بذكاء ولين وتواصُل فعّال، أشهَدُ أنّه غيَّرَ منْ أذهاننا ذلك المفهوم المدرسيَّ المنقص لأدوار البلاغة، بما هي لائحة من المحسنات اللفظية المُحنّطة، التي تُعنَى بمعرفة قواعد تحسين الخطابات ، إلى بلاغة رحبة5، تُوجِّهنا إلى امتلاك كفايات مَعرفية لتحليل الخطابات التي أنشأها أصحابُها إما لأغراض تداولية عملية أو تخييلية أدبية، فأصبحتْ بالتالي عبارة عن مُقاربة تحليلية مُمَنهجَة، تستثمر الموروث القديم في إطار جديد، مع ما يجرّهُ ذلك منَ اصطدام بإشكالات نقدية مُلغزة، واجهتها البلاغة بتحدٍّ كبير، الشيء الذي يفسِّر لنا؛ إصرار الدكتور مشبال على جدّية الطّرح، وحرصه الشديد على تحقيق تصوُّره، برؤية استراتيجية واعية، توخَّتْ خلقَ حلقات من التعاون والتواصل مع مختلف فئات الباحثين والمهتمين ، تُرجمَت بتنظيم ندوات وأيام دراسية، يُكرَّم فيها المجدون الذين أسهموا بأعمالهم ومشاريعهم في تطوير الثقافة المغربية والعربية، والغرض - كما يفصح عنه بنفسه ? « ...والغرض من ذلك كله خلق التفاعل والاحتكاك بين أفكارنا وأفكار غيرنا من الباحثين الذين نستدعيهم من جامعات مغربية وعربية، كما أنَّ نشرَ أعمال هذه الندوات والمؤلفات الجماعية التي أحرص على إنجازها بشكل متواصل، من شأنها أنْ تُحفز الباحثين الشباب على الانخراط في المشروع وتطويره، كما من شأنها أنْ تُطلع القارئ العربي على طبيعة الأبحاث التي ننجزها في هذا الحقل، وكل ذلك في النهاية يقضي إلى خلق حوار عربيّ أكاديمي مُوسَّع حول البلاغة.»6

ولأن البحث في البلاغة هو بحثٌ في السِّمات والأشكال التي يتحقق بهما التأثيران الحِجاجي والأدبي في الخطابات، فقد دَفعه هذا إلى طرق باب التّرجمة بنفسه7، من أجل توسيع التحليل البلاغي لصُوَر الأسلوب، ومنها تعميق البلاغة الأدبية بمفهوماتها الدّقيقة، أفادَه في ذلك كتاب ستيفن أولمان Stephen Ullmann 8 ، الذي تناول الصوَر البلاغية في الخطاب عبر التمييز بين ما هو سياق كليّ وسياق نوعي، وعن ذلك يقول د. مشبال» تستطيع إذن أن تقول إن انشغالي بالبلاغة في تجلياتها النصية

المتنوعة هو الذي قادَني إلى ترجمة هذا الكتاب، وإلى الاهتمام بالرّواية والقِصة والخبر والنادرة. لم أكن مُقتنعا بأن البلاغة تقف عاجزَة عن طرق أبواب الأنواع السّرَدية، لأجل ذلك حَرصْتُ على أنْ أُثبت بهذه الترجمة أو بما كتبته من دراسات عن علاقة البلاغة بالنص السردي، أنَّ البلاغة تملك فتح مجال خصب لاختبار أدواتها وتوسيع مبادئها ومفهوماتها...»9

أَ ليسَتْ هذه استماتة وتحديات عالية، تُبرِّرُ أسبابَ مُواصلة المشوار البحثيّ لمدة ثلاثين سنة دونما ملل أو كلل؟ وَتَكشف قيمَتَيْ الصبر والجَلد اللّتيْن يَتمتّع بهما محمد مشبال، الأستاذ الذي ما فتئ يَغرسُهما في طلابه، كما ورثَها هو عن بعض من أساتذته الأفاضل، والذين خصَّهم بالتبجيل عبر هذا الكتاب، وفاءً لما تَشرَّبَه من معينهم واعترافا بمجهوداتهم، فذَكرَ المرحومَيْن: العلامةَ د. محمد أنقار والناقد المصري سيد البحراوي.

فأعودُ وأقولُ لَربَّما هي التقاطة عين ناقديْن مشهود لهما بالكفاءة والمثابرَة ، قد توسَّما فيه استعدادات فطرية وكفايات ذاتية، تُنبئ بقدرته على تقديم شيء جديد في حقل المعرفة ولو بعد حين، فساناده بالتوجيه والتشجيع والاحتضان، وفي ذلك يقول عن سيد البحراوي « ...لقد ظل طوال فترة إعدادي لرسالة الماجستير يُمثّل لي المُحاور المباشر الذي أعرض عليَه وجهات نظري على الرّغم منَ أنّه لم يكنْ مُشرفا على رسالتي، وكانت حواراتُه لي دقيقة وصارمة إلى الحدّ الذي كنتُ أفصح له عن عجزي عن مُجاراتها أو القدرة على التّجاوب مع ما كان يتوقعُه مني»10، وعن المرحوم محمد أنقار قال « ومن خلال احتكاكي أيضا بزميلي المرحوم محمد أنقار، هذه نقطة لا ينبغي نسيانها؛ فعندما عُدت إلى المغرب وجدتُ هذا الأستاذ الكبير يحتضنُني»11 ، هذا التواضعُ العلميُّ هو الذي ما زلنا نلمسُه في مُداخلاته وتوجيهه، ونتّكئ عليه كرافد مهم وسمَة مميزَة لشخصيته ، تسمحُ لنا بالاستنجاد به في كل وقت وحين...

الناظرُ في هذه السيرة الذهنية، سيتأكّدُ أنها مراحلُ من حياة علمية مليئة بالأحداث المتجدِّدة في مُتوالية بلاغية، تتغذّى من داخلها علَى الإشكالات النّقدية، وتَقتنص من خارجها بعضَ التقنيات والمُخرَجات، عن طريقَ المطالعات والقراءات ومحاورة النصوص العربية والغربية، وكذا الانفتاح على تقاسُماتها المائعة مع كل المناهج والحقول التي تعنى بتحليل الخطابات...كل هذا جعلها مسيرة عصامية مُكلّلة بأرفع الجوائز وأهمّها بالعالم العربي. إذْ يكفي أنْ نعلم ما حصل له يوم فوزه بأول جائزة، لندرك مدى ما راكمَه نفسيا ولسنوات، يقولَ « لا أخفيك أنني عندما تلقيْت خبرَ فوزي بأول جائزة في حياتي العلمية، جلستُ في مكاني صامتا لأكثر من سبع ساعات أراجع شريط حياتي العلمية»12.

رجلٌ عانى التجاهل والتهميش والعُزلة...، وهو اليوم يكشفُها ويُصرِّح بها « لقد تعودت طوال مسيرتي العلمية إمّا الإهمال والسكوت المطبق على أعمالي، أو تبخيس جهدي والتقليل من قيمة ما أكتب، وقلما حظيتُ بتقدير حقيقيّ، لكنني كنت أومن بما أصنعُه في حياتي العلمية، ولأجل ذلك لم أتوقفَ، وكنت دائم السعي إلى تطوير ذاتي»13، هذا البعد التراجيدي لسخرية القدَر، بقَدْر ما هو مُؤلمٌ لأيّ إنسان مهما كانَ قويا، فقد شكّل لَه عَونا ودافعا - ربَّما قاسيا ? للسَّير قُدُما في طريقه وتطوير حقل البلاغة الذي عاش الجمود والاجترار والابتعاد عن مجرى الحياة...

الكتاب بالإضافة إلى كونه سيرة ذهنية، يُفصح فيها البلاغي محمد مشبال عن مسيره Carrière)) العلمي والأكاديمي، فهو يكشف:

أولا - عن مَعقله الدفاعيّ المُتجلّي في قدرة البلاغة على مُحاورَة كَلّ النصوص، حتى الأدبية منها والتخييلية مثل الرواية، بالرغم من المعارضة الشديدة التي ما فتئ يتَعرَّض لها، وفي ذلك يقول» هناك أطروحة تقول إن البلاغة ينبغي أن تصمت عندما تواجه الأدب الحديث، وحجج القائلين بها لا تعري عن القوة، ولأجل ذلك لا أتردد في مناقشتها دفاعا عن أطروحة نقيضة. من ذلك مناقشتي هنا لما قاله الناقد الأكاديمي حميد لحمداني»14 .

ثانيا- مَقصديَّتَه في ضرورة أنْ يكون للباحث الأكاديمي مَشروعٌ يشتغِل عليه، ويُطوِّره بمحاورة وإشراك الطلاب والباحثين ومختلف الفاعلين، مع ما يتطلب ذلك من صبر ومثابرة واستمرارية، حتّى لا تكون إصداراته وكتاباته معزولة ومتذبذبة يعتريها التناقض...

ثالثا- صورة محمد مشبال الإنسان من خلال خطابه، وهذا ما يُعَبَّر عنه بلاغيا بالإيتوس Ethos، حيث أن القارئ لهذه السيرة، لنْ يغنَم فقط تَصوُّره عن البلاغة، بل إن شفافيته في سردها خطابيا، أفرزَ لنا خصائصَه الذاتية، بطريقة مباشَرة أو غير مباشرة، سواء منها الاجتماعية أوالسيكولوجية والتواصلية، والتي لا يمكن إلا الاقتداء ثم الافتخار بها.

المراجع المعتمدة:

-1 محمد مشبال، نحو بلاغة جديدة: حوار في البلاغة، خطوط وظلال للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2023.

-2 محمد مشبال، بلاغة السيرة الذاتية: أعمال مهداة للدكتور محمد أنقار، دار كنوز المعرفة، الطبعة الأولى 2018.

هوامش:

-1 محمد مشبال، بلاغة السيرة الذاتية: أعمال مهداة للدكتور محمد أنقار، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2018. ص.7.

2 -حسب معجم المعاني الجامع، استبانة: مصدر استبان، وهي مجموعة من الأسئلة حول موضوع معين، تعتبر أحد أهم أدوات البحث العلمي وأدوات الدراسة، لذلك فهي تنسجم مع ما جاء على غلاف النص هدف المقال « دراسة».

3 -نحو بلاغة جديدة، مرجع مذكور، ص.13.

-4 نفسه، ص.68.

-5 يقول د. مشبال» باختصار، إن ما أعنيه ب البلاغة الرحبة (أو الموسعة)؛ هو ضرورة إخراج البلاغة من نسقها الكلي المجرد، إلى حيز النصوص والأنواع والأنماط والسجلات الخطابية. البلاغة في تصوري حقل أو معرفة موضوعها رصد وتحليل تقنيات الخطابات اللفظية التي تتوخى إحداث التأثير في المتلقي»... راجع: نحو بلاغة جديدة، مرجع مذكور، ص.19

-6 نحو بلاغة جديدة، مرجع مذكور، ص.59.

-7 ترجم كتاب ستيفن أولمان Stephen Ullmann 1914-1976 « الصورة في الرواية»، وترجم كذلك كتاب « صورة الآخر في الخيال الأدبي» للناقدة الأمريكية طوني موريسون Toni Morrison 1931-2019، وغيرها...

8 -كتاب ستيفن أولمان « الصورة في الرواية».

9 -نحو بلاغة جديدة، مرجع مذكور، ص.45.

-10 نفسه، ص.51.

-11 نفسه، ص. 67

-12 نفسه، ص.68.

-13 نفسه، ص.68.

-14 نفسه، ص.36.

حاوره: عبد الخالق النجمي 1

ترجمة: عبد اللطيف شهيد 2

مع الروائي والمترجم الإسباني غونزالو فرنانديث باريا بمناسبة صدور كتابه الجديد «جنوب طنجة.. رحلة إلى ثقافات المغرب»

يعتبر «غونزالو فرنانديز باريّا» أحد المراجع الأساسية في إسبانيا من حيث الترجمة من اللغة العربية، كما أنه مرجع للدراسات في الأدب العربي. كان مديرًا لمدرسة مترجمي طليطلة ويدرّس حاليًا اللغة العربية وآدابها في جامعة مدريد المستقلة. من بين منشوراته « الأدب المغربي المعاصر» (2006)؛ « الرواية في المغرب، نوع أدبي جديد في عملية تشكيل الأدب العربي القومي، دور النقد (2000)»؛ شارك في كتابة « سيرة ذاتية وأدب عربي (2002)»؛ « الاستشراق: الغريب والترجمة (2000)؛ « المغرب العربي وأوروبا: الأدب والترجمة (1999)؛ «الفكر وتداول الأفكار في البحر الأبيض المتوسط (1997)».

المغرب

جزء أساسي من حياتي الفكرية والعاطفية

كيف ومتى انبثقت فكرة كتابة « جنوب طنجة؛ رحلة إلى ثقافات المغرب»؟

– خطرت لي فكرة كتابة «جنوب طنجة..» لأول مرَّة منذ زمن. كان ذلك صيفًا في مدينة أصيلة، منذ سنوات عديدة، في منزل صديق عزيز، عندما فكرتُ في تأليف كتاب عن كُتاب مغاربة يُمكنهم مُرافقة الإسبان الذين يسافرون إلى المغرب، والذين لديهم فضول لقراءة مؤلفاتهم. ولكن بسبب أشياء في الحياة، مهنية وشخصية، لم ينجح الأمر. قبل الوباء بقليل، عادت إليَّ الفكرة، بقوة لا يمكن إيقافها. كنتُ قد سئمتُ الكتابة باللغة الإنجليزية للمجلات الأكاديمية «المرموقة». وغدوت بحاجة إلى كتابة شيء يَصلُني بجمهور خارج الأوساط الأكاديمية. بدَأتُ بإخراج ما كان بداخلي دون الكثير من التخطيط، بحثًا عن صوت يسمح لي بقصّ ما أريده على جمهور مختلف. وفي النهاية ظهر «جنوب طنجة».

لقد قرأت أن هذا الكتاب مبني على تدوينات حسابكم على الإنستغرام «مغرب آخر». لماذا اخترتم العنوان «جنوب طنجة»؟ هل بسبب أن العلامة التجارية «طنجة» يتم استقبالها برحابة من طرف النقاد الأدبيين الإسبان؟

لا يعتمد بالضبط على حساب الإنستغرام «مغرب آخر». (https://www.instagram.com/otro.marruecos/). ظهر الحساب كإمكانية للتواصل مع المتابعين الذين يحتمل أن يكونوا مهتمين بالقصص التي أردت سردها في «جنوب طنجةّ» تزامنا مع الفترة التي بدأت فيها الكتابة. قدَّمتُ فيه بعض القصص التي وضعتُها لاحقًا في «جنوب طنجة». بمجرد نشر الكتاب، أصبح حساب «مغرب آخر» على الانستغرام أيضًا منصَّة يُمكن من خلالها الدِّعاية للكتاب والاستمرار في نشر الثقافة المغربيَّة.

إن عنوان «جنوب طنجة» والعنوان الفرعي رحلة إلى ثقافات المغرب هما نتيجة مفاوضات طويلة مع نفسي والنّاشر ومع أصدقائي.

لا أعرف ما إذا كانت طنجة علامة تجاريَّة بقدر ما هي واحدة من الأماكن التي يتردَّدُ صَداها أكثر لدى الشخص الإسباني. لقد كانت ولا تزال إحدى البوّابات المعتادة للمغرب. على الرَّغم من أنه عندما أقول جنوب طنجة يعني هذا قبل كل شيء القول: دعنا نتجاوز طنجة، نتجاوز الأساطير، دعونا نتعمق في المغرب الحقيقي، دون الحنين إلى الماضي.

عدد كبير من الكُتّاب الإسبان يعتبرون طنجة مدينة أدبية. هل تتّفقون مع هذا الطّرح؟

عندما يكون هناك متخصِّصون مثل رَندا جبروني (Randa Jebrouni) وروسيو روخاس ماركوس (Rocío Rojas-Marcos)، اللتين كتبتا أعمالا مثل "الحرف والمدينة» و»طنجة؛ الموطن الثاني»، فذلك دليل على أن ثمَّة شيئًا، شيئًا يتجاوز إسبانيا. لطالما كانت طنجة قطب جذب ليس فقط للكُتّاب، ولكن أيضًا للفنانين من جميع الأنواع. يتغذى الأدب من تجاربنا، لكن من الأدب أساسًا. إن طنجة بالفعل، بكل انتشارها، حظ زماني ومكاني أدبي.

كيف تغيَّر المغرب بين أول زيارة لكم له في أوائل سنوات الثمانينيات وآخر زيارة سنة 2023؟

لقد شهد المغرب تحولات عميقة خلال أربعة عقود. حدث تقدم اقتصادي واجتماعي مثير للإعجاب، على سبيل المثال، ما يتعلق بالمكانة التي يجب أن تحتلها اللغة والثقافة الأمازيغية في الهوية الوطنية أو فيما يتعلق بحقوق المرأة. في رأيي، لا تزال التحديات الأساسية في المغرب تتعلق بالمساواة في جميع المجالات، وكذلك بالحريات الفردية وحريَّة التعبير. من إسبانيا، حيث ناضلنا بشدة – وما زلنا نناضل – من أجل هذه الحقوق ولتطبيع التنوع والحريات الفردية، نندهش لوجود مواد في قانون العقوبات مثل قانون 490 أو قانون 489 التي تعاقب على التوالي العلاقات خارج الزواج وبين الأشخاص من نفس الجنس. أكتب هذه السطور بينما نحتفل بإسبانيا بمهرجانات حقوق

مثليي الجنس ومزدوجي التوجه الجنسي وللمتحولين جنسيًا. وفي المغرب، أصدر حزب سياسي بيانا حث فيه على حظر فيلم القفطان الأزرق للمخرجة مريم التوزاني. حظر الواقع لا يقود إلى شيء. بالإضافة إلى كونه نِفاقًا، فهو سخيف.

في هذه العقود الأربعة، بالإضافة إلى بلد المغرب، تغيرت نظرتي أيضًا. إذا اتّسمت النظرة الأولى بالغربة، الآن هي نظرة ألفة مع بلد وشعبه وثقافته التي هي جزء أساسي من حياتي.

تقولون في روايتكم: «سحر المغرب يدفعكم إلى» اكتشاف نفسك « مما يتكون هذا السحر؟

- السِّحر له معنيان، من ناحية، فهو مرادف للانجذاب الغامض والخفي، ومن ناحية أخرى، السحر يعني أن تصبح مسحورا بفعل فاعل، أو تسلب عقل شخص ما أو تتلاعب بصحته بممارسات خرافية. كانت هذه طريقة للجمع بين الغرائبي، كان هذا حاضرا حتمًا في رحلاتي الأولى، وهو ما يجذبك، هو ما لا تفهمه تمامًا، وهو ما يخيفك كذلك ... هذا ما يحدث بعد السفر كثيرًا، بعد مقابلة أشخاص حقيقيين، تكتشف أن السحر الحقيقي للمغرب لا يكمُن في الآخر المُختلف، في الغموض، ولكن في اكتشاف نفسك من خلال أصدقائك المغاربة. كتبت «جنوب طنجة» وأنا أدرك أن»السَّفر إلى المغرب - بالنسبة لشخص إسباني- هي البداية دائمًا». يتيح لك التعرف على نفسك والتاريخ الطويل المشترك بين المغرب وإسبانيا.

تُؤكِّدون في عملكم: «مِنْ تِلْكَ الرِّحْلَةِ الْأُولَى فَهِمْتُ أَيْضًا أَنَّ إِسْبَانْيَا وَالْمَغْرِبَ مُتَرَابِطَانِ، وَأَنَّهُمَا يَشْتَرِكَانِ فِي تَارِيخٍ طَوِيلٍ وَمُعَقَّدٍ» على الرغمَ من ذلك، يبدو أنهما قريبَانِ جدًّا وفي الوقت نفسه متباعدان. هل تعتقد أنهما كذلك؟

العلاقات بين إسبانيا والمغرب معقدة ومتضاربة دائمًا. في «جنوب طنجة»، أتحدث عن قرب بعيد بشكل متناقض، عن تشابه مختلف، وعن حقيقة أن العلاقات الإسبانية المغربية دائمًا ما تكون حسّاسة جدا، وفي بعض الأحيان يشوبُها امتعاض. على الرغم من كل شيء، نحن نعيش في عصر ذهبي للعلاقات الثنائية. بالإضافة إلى ذلك، هناك مساحات جديدة آخذة في الظهور، والتي تتجاوز أحيانًا المساحات الوطنية الضيقة ومفهوم العلاقات الثنائية.

أَشرتم إلى ضرورة ترجمة جديدة لِكتاب «الخبز الحافي» لمحمد شكري، ألا تعتقدون أن كلاً من عبد الله جبيلو ورجاء بومدين قد بذلا جهدًا كبيرًا للحفاظ على تراث شكري باللغة الإسبانية، مترجمًا؟

- مع كل احترامي لهذين المترجمين الرائعين اللذين أسهما في الحفاظ على تراث شكري وجعلاه معروفا في إسبانيا، أعتقد أن هناك شيئًا ما حول شكري سقط على جانب الطريق. قصص شكري مثيرة للغاية ولا تزال كذلك، مثل ألف ليلة وليلة، ولكن عند شكري هناك عمل لغوي، شعرية، في رأيي المتواضع، فقدَناهما عند الانتقال إلى الإسبانية. لقد نجح شكري بسبب القوة الهائلة لِقصصه، لكننا ما زلنا نفتقر إلى شعريَّة لغته، وخاصة تُحفته «الخبز الحافي». أعتقد أنه يمكن إنجاز ترجمة ثالثة لهذا العمل الفريد.

هل تعتقدون أن كتابكم قد نجح في تقديم المغرب دون صور نمطية متداخلة على الواقع؟

حقًا، لا أعرف. كنتُ أنوي الابتعاد عن الصور النمطية. أعتقد أنني أقترب من مغرب حقيقي في المجال الثقافي. عادة لا أعطي الكثير من الآراء على الكتاب حول ما هو المغرب وما لا يكون. لقد تركت الفنانين والكتاب والكاتبات المغاربة يخبرون عن المغرب بأنفسهم. استخرَجت لويزا مورا، مديرة المكتبة الإسلامية « **Félix María Pareja**» التابعة للوكالة **AECID**، جميع أعمال المؤلفين المغاربة، مائة وخمسون كتابًا تمَّت ترجمتها إلى الإسبانية لمُؤلفين مَغاربة وتروي جوانب عديدة عن المجتمع المغربي. إذا كنتُ قد نجحتُ في تقديم مغرب دون صور نمطية سيكون على القراء، وخاصة المغاربة تحديد ذلك.

يبدو أنكم تخجلون من الاستعمار الإسباني و»الأخوة الإسبانية المغربية»، هل هذا صحيح؟

ليس إلى درجة الخجل. حاولتُ تقديم نظرة نقدية للاستعمار. لا يمكننا في هذه المرحلة أن نستمر في القول إن الاستعمار الإسباني للمغرب كان استثنائيًا، ولم يكن يشبه أي استعمار آخر، لأن الخطاب الاستعماري الذي كان قائمًا أرغمنا، كما أظهر مؤلفون مثل جوزيب ماتيو ديست (**Josep Mateo Dieste**) أو إريك كالديروود (**Eric Calderwwod**) على هذا الافتراض الأخوي. كيف تتزاوج هذه الروح الطيبة مع عنف حروب الريف وعنف الحرب الأهلية الإسبانية؟ لا يمكن أن تكون اللغة المستخدمة في الحديث عن الماضي المشترك في هذه المرحلة مشبَّعة بالاستعمار، لدرجة الاستمرار في الكلام عن السلم للحديث عن العنف الاستعماري والعسكري الذي يمارس في الريف. المغرب، من جانب آخر، لديه أيضًا الكثير لمراجعته في طريقة ارتباطه بماضيه، بما في ذلك الماضي الاستعماري.

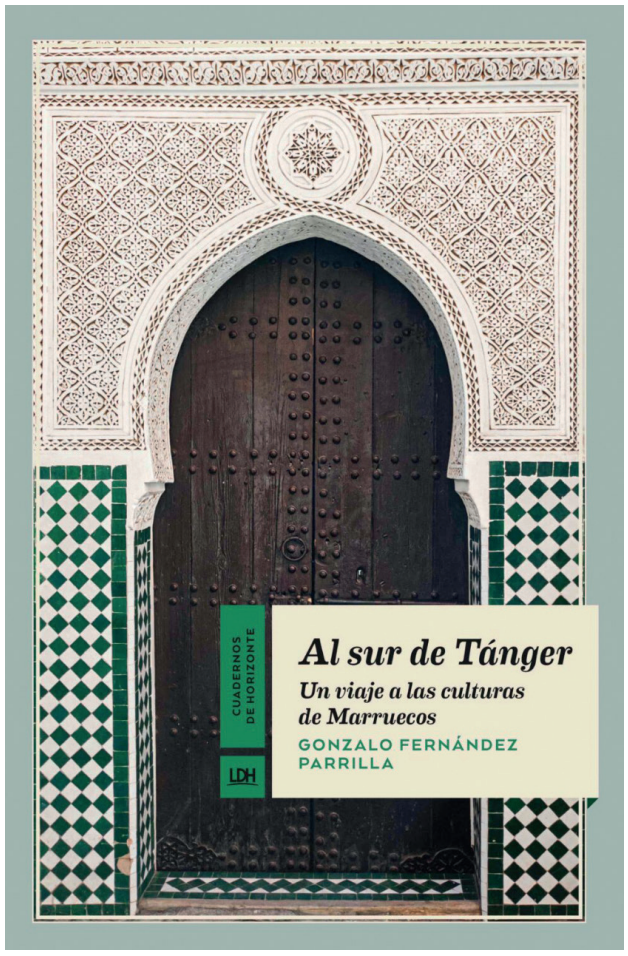

ما الذي ينبغي عمله للتغلُّب على الكليشيهات والصوَّر النَّمطية للماضي بين إسبانيا والمغرب؟

أعتقد أن الترياق الوحيد للكليشيهات هو المعرفة. في أحدث أعماله «رسائل مغربية إلى روزا،» يتحدث أحد الكُتاب باللغة الإسبانية الكبير محمد أبريغاش عن «الجهل الصارخ». أعتقد أنه لا توجد طريقة أفضل للتعبير عنها. لمعرفة الثقافة، وقبل كل شيء، معرفة الأشخاص. هذا هو الترياق الوحيد، المعرفة ضد الجهل والصوّر النمطية.

لسوء الحظ، الأدب المغربي المكتوب باللغة العربية غائب عن المشهد الأدبي الإسباني، ما مردُّ ذلك؟

- ليس بغائب. هناك شيء آخر، من المرغوب ترجمة المزيد. في نهاية القرن الماضي، مع ميغيل هيرناندو دي لارامينديِ (**Miguel Hernando de Larramendi**)، أطلقنا في مدرسة مترجمي طليطلة مشروعًا جديدًا للترجمة بعنوان الأدب المغربي والفكر. في الوقت الذي كان فيه مصطلح «المغربي» مرتبطا بشكل حصري تقريبًا بالمهاجرين، قمنا بتداول مؤلفين مترجمين من العربية مثل عبد المجيد بن جلون ومحمد عابد الجابري وعبد الكريم غلاب وليلى أبو زيد، وبنسالم حميش ورشيد نيني ومحمد بنيس حيث كان على الصحافة التحدث عن فيلسوف مغربي، شاعر مغربي، كاتب مغربي...

ما رأيكم في الأدب المغربي المكتوب باللغة الإسبانيَّة والكتالونية؟

لا أرى تصنيفا للأدب المغربي باللغتين الإسبانية والكتالونية، في النهاية، إنه غيتو، درج خياط لا يساوي شيئًا سوى تعزيز القوميات. كنت في عرض لكتاب بعنوان «أدب النازحين»، اقترحتُ أنه بخلافً التنسيقيات الوطنية، فإن النُّزوح مكان ننطلق للكتابة منه، أدب خارج الرحم يكتب فيه المؤلفون غالبًا بلغة أخرى غير لغتهم الأم. تأتي أصالة هذا الأدب من تجارب شخصية فريدة ومن علاقة خاصة مع لغة الكتابة، وكذلك من العلاقات الجديدة مع القانون الأدبي المهيمن. الكاتب هو اللغة التي يكتب بها. سيكون من الطبيعي مستقبلا أن نسمع مِن وقت لآخر في الأدب الإسباني أو الكتالوني عن كُتاب يُسمَّون نجاة أو محمد أو كريمة أو يوسف...

ماذا يُمثِّلُ لكم المغرب وطنجة بوجه خاص؟

المغرب جزء أساسي من حياتي الفكرية العاطفية. قضيتُ ساعات طويلة أقرأ للمؤلفين المغاربة، وأرتشف من الثقافة المغربية. أشعر بأنني مغربي بطريقة َما. العديد من أعز أصدقائي مغاربة، أو يعيشون مثلي بين إسبانيا والمغرب.

كانت طنجة مكانًا للوصول والمغادرة، ومع هذا الكتاب، عادت مرة أخرى مكانًا للوصول والمغادرة. بفضل طنجة قابلت أشخاصًا رائعين. بفضل طنجة أنجبت طفلين رائعين.

2023/07/09

إضاءات :

1- من مواليد طنجة **1978**، خريج مدرسة طليطلة للمترجمين، حاصل على الدكتوراه من جامعة مدريد المستقلة ويعيش في غرناطة. وهو مترجم وصحفي اشتغل مع عدة وسائل إعلام مرئية ومسموعة ومكتوبة في المغرب وإسبانيا وأمريكا اللاتينية.

2- مترجم مقيم بين المغرب وإسبانيا، صدرت له مجموعة قصصية مترجمة «الشاب الذي صعد إلى السماء: مختارات قصصية من أمريك اللاتينية».

العنوان الأصلي :

Gonzalo Fernández Parrilla: "Marruecos / es una parte esencial de mi vida, de mi vida / "intelectual y de mi vida emocional

المرجع :

https://www.estrechonews.com/al-minuto/gonzalo-fernandez-parrilla-marruecos-es-una-parte-esencial-de-mi-vida-de-mi-vida-intelectual-y-de-mi-vida-emocional/?fbclid=IwAR1wSCgUqRmTtagWWUoR2SxwgKY8Pv0PbFcPNVzdpDI-8DaFQlQ-z3zjHg7

التوهج المتفرد

رضوان احدادو

في الذكرى الثالثة - غشت 2020 - لرحيل أيقونة المسرح العربي ثريا المسرح المغربي الفنانة القديرة المرحومة ثريا جبران.

لا تسدلوا الستارة أيها العاشقون
فالقمر ما زال ينير مرابعنا
البحر كل فجر يمنحنا
الشجرة الغناء مازالت مخضرة
وارفة الظلال ، معطاء
باذخة النماء ،سخية العطاء
متفردة..
صامدة في وجه الرياح الأربع
متوهجة ..
متجدرة في وجداننا المسرحي
هكذا عرفتها
مذ عرفتها
وهكذا مازلت أعرفها
نخلة موغلة في التربة
صومعة سيدة الأعالي
رجاء ،رجاء
لا تسدلوا الستارة أيها الحالمون
مزيدا ، مزيدا من التوهج
وفروا زيت القناديل
أوقدوا الشموع والمشاعل
الحفل لازال باذخا مترنما
متلألئا ، يانعا ، مسترسلا
لا تطفئوا المصابيح أيها المتيمون
نحن هنا
لن نبارح المقاعد أبدا
نحن هنا
لن نقتل العشق الذي بداخلنا
من قال لكم إن الركح فارغ
من قال لكم إن العرض انتهى
انظروا
القادمة من صلب المسرح
وجدارته
أرومته وعراقته
عرقه وغباره
سيدة من عناد
أبدا لن تسلم المركب
أبدا لن تلقي بالمنديل على الحلبة
هكذا علمها المسرح
وعلمها ..
كيف تعاند ،وكيف تستميت
كيف يبقى التوهج وهاجا في الغياب
وعلمها ..
كيف لا تموت
«نموت نحن ويبقى المسرح»
فلا تسدلوا الستارة

***

ثريا المسرح المغربي وأيقونته، توهج غريد متفرد، شموخ مسرحي سامق شامخ، بسخاء صوفي متفان أعطت للمسرح عمرا من عرق ولحم ودم، اعتلت العروش من غير أن تركع، أو تخفض الهامة، لم تمسح معطفا، أو تنحر قربانا أو قدمت الزلفى.

في لحظة من لحظات التيه والحيرة، عند مفترق الطرق، وأمام اختيارات أحلاها مر، مرهقة كانت، متعبة أخرى – على التعرية والجهر فوق الخشبة.

كان ذلك هو الاختيار الصعب/ الأصعب.. لا يهم، إنه العشق وكل شيء يهون أمامه.

ومن يخطب الحسناء لا يغليها المهر

كان حب الناس لها، الناس الذين أحبتهم مبلغ سعادتها ومرقى طموحاتها، مستصغرة ما هو كبير في أعين الآخرين، زاهدة فيه، غير مبالية، فالقمراء الوضاءة أقوى لمعانا ولألأة من كل الأوسمة والنياشين، أكثر حجما وأكبر مكانة من كل أحجام الكراسي، وألوان الحقائب.

أتذكر

مساء يوم معشوشب، مخضوضر، مزهو بالأوتار، مترع بالألحان والأنغام من أيام ماي 2008 والقمراء وقتها وزيرة للثقافة والمناسبة افتتاح الدورة العاشرة لمهرجان العود بتطوان، والموكب موكب رسمي، مقيد، مكبل بضوابط صارمة، كل الخطوات، كل الحركات، كل الإشارات تحت المجهر، ولكن ثريا الفرح والأفراح، المرح والانشراح، لم تكن لتعبأ، وكيف لها وهي المسكونة بالمسرح الساكنة فيه.

أتذكر

لحظتها وقد رمقتني من بعيد كيف غابت الوزيرة وحضرت الفنانة وهي تتخطى الحدود وتدوس الطقوس، خلعت لباسها الرسمي، الضيق الخانق، اغتسلت من مساحيقها البروتوكولية، ألقت بقناع الزيف مستردة لباسها الفضفاض، حريتها، حياتها وعمرها وقد انطلقت باندهاش نحوي معانقة.

إنها المتفردة.. الساكنة في المسرح، المسكونة به.

فلا تسدلوا الستارة.

أتذكر

والصباح صبوح، مشرق المحيا، موشى بأغاريد الأمل، صباح (نوفمبري) غريد، طافح بالتهاليل من سنة **2008** ونحن حزيمة أفراد من مؤسسة (المسرح الأدبي) المعتقة بتاريخ مسرحي عبق وضاء، كنا على موعد مسبق مع السيدة الوزيرة، والمناسبة دعوتها لدعم وحضور افتتاح الدورة الرابعة لـ(فضاء تطاون للمسرح المتعدد).

بالمكتب المقابل لمكتبها لم يكن لانتظار طويلا

قال لنا سي حسن بأدبه المعهود وهو يمد لنا بشائر وجهه.

– تفضلوا السيدة الوزيرة في انتظاركم.

دخلنا المكتب الفسيح الأنيق، بحثنا عن الوزيرة فلم نجدها، كان الكرسي الوثير فارغا، ولكننا داخل الحجرة عثرنا على ثريا جبران، على امرأة هي أكبر من الكراسي.. على فنانة وضاءة بتواضعها هي أكبر من كل وزير ووزيرة.

كانت جلسة حميمية.. دافئة.. ثرية، من غير تكاليف وبلا مجاملات.

أتذكر

وأتذكر

فلا تسدلوا الستارة أيها العاشقون

تطوان – المغرب